الباب الرابع

الثقافة والتعليم

الفصل الأول

السمات والنظرية والتقاليد

تمهيد

التراث الثقافي قبل الإسلام

يبدو أن من المتعذر الكلام عن حركة التعليم، واقعه ومداه ومستوياته ومناهجه ومؤسساته بصورة دقيقة وشاملة للمنطقة الواسعة، التي كان الإسلام يحكمها في عصر السيرة والراشدين، فقد امتد الإسلام في برهة وجيزة من أطراف خراسان الشرقية حتى أفريقية (تونس)، ومن شرق الأناضول حتى البحر العربي، وهي منطقة تبلغ مساحتها ٣٥٠٠٠٠٠ ميل مربع[١]، وتشتمل على مراكز الحضارة العالمية القديمة، في بلاد الرافدين ووادي النيل، حيث قامت الحضارات السومرية والآشورية والبابلية في العراق، والحضارة الفرعونية بمصر.

وبرغم أن التأريخ يحدثنا عن الكتابة وظهورها في العراق (٣٠٠٠ قبل الميلاد) وعن مكتبة آشور بانيبال، ومجموعة الألواح التي اكتشفت في مدينة نفر وحدها، التي تضم ٣٠٠٠٠ رقيم طيني في شتى صنوف المعرفة العظيمة[٢]، ومسلة حمرابي ونصوصها القانونية، وعن بقية مظاهر الرقي الأدبي والفني المتنوعة الأخرى في العراق.

كما يحدثنا عن الكتابة الهيروغليفية والآثار الفرعونية ذات الدلالة القوية على تقدم المصريين في العلم والحضارة، وخاصة الطب والهندسة والرسم والنحت، برغم هذا كله فإن هذه الحضارات كانت قد اندثرت قبل ظهور الإسلام بزمن بعيد. كما اندثرت حضارات معين وسبأ وحمير في اليمن، حيث انتشرت الكتابة وعرف خط المسند.

---

(١) محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية (لاحظ الخارطة مقابل: ٥٤٢).
(٢) وزارة الثقافة والإعلام العراقية: العراق في التأريخ ٦٥، ٦٩.

وما نعرفه عن مراكز العلم والثقافة العالمية عند ظهور الإسلام يبدو ضئيلاً جدّاً، فالقوى العالمية المعاصرة لظهوره كانت متمثلة بالإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية، وقد أزال الإسلام الأولى، وحسر الثانية عن حوض البحر المتوسط الجنوبي والشرقي، حيث مستعمراتها الغنية. لكنها بقيت تناهضه وتعارضه بدينها وثقافتها، وتتبادل معه الخبرات عبر اتصالات الحرب والسلام.

ومن هذه المعلومات الضئيلة التي حفظها التأريخ، عرفنا مركزاً ثقافيّاً مهمّاً في علوم الطب والفلسفة، يتمثل في مكتبة الإسكندرية الشهيرة، التي حافظت على الثقافة الإغريقية والكتب البابلية، التي اعتكف العلماء على ترجمتها وشرحها[١]، ومركزاً آخر في جند يسابور، حيث أنشأ كسرى انوشروان (٥٣١ – ٥٧٨ م) المدارس العليا لتعليم الطب، كما أمر بنقل كتب علمية من اللغات السريانية واليونانية والسنسكريتية إلى البهلوية، التي كانت في ذلك العصر لغة الفرس[٢]. وثمة إشارات إلى أنشطة فكرية في الأديرة النصرانية أو المدارس اليهودية، وخاصة في الرها حيث ينشط السريان. وإشارات أخرى إلى المعابد المصرية القديمة، التي حفظت كتب علماء مصر القدماء، ومنها معبد سيرابيس بالإسكندرية[٣] ومعبد أخميم الذي أقامه اليونان في مصر العليا، وكان يطلق عليه «دار الحكمة لقدماء اليونان»[٤].

ونقرأ ملحوظات عن «مدى عناية الأمم القديمة بالعلوم عند صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢ هـ) في كتابه (طبقات الأمم)، فقد ذكر عناية بعض الشعوب بالعلم، وهم: الهنود، و الفرس، و الكلدان، و اليونان، والروم، وأهل مصر، والعرب، وبنو إسرائيل»[٥].

(١) ابن النديم: الفهرست ٢٣٩ – ٢٤٠، والقفطي: تأريخ الحكماء٧١، ٣٥٦.
(٢) نالينو: علم الفلك – تأريخه عند العرب ١٨٠ – ١٨١.
(٣) المقريزي: خطط ١٣٣.
(٤) ابن النديم: الفهرست ٢٣٨، ٣٥٢.
(٥) صالح أحمد العلي: تأريخ العلماء وفهارس المصنفات في المصادر العربية (مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الرابع والثلاثون ١: ٦ – ٧).

وكان اهتمام هذه الشعوب ينصب على التأريخ، والأدب، والفلسفة، والطب، والفلك، والإسرائيليات (تأريخ الأنبياء). ومن الواضح أن أياً من هذه العلوم المدونة باللغات الأجنبية لم يترك أثراً على الثقافة والتعليم في عصر السيرة والراشدين ماعدا الإسرائيليات التي اطلع عليها - بحذر شديد - أفراد معدودون من الصحابة.

ولكن - للأسف - لم يحفظ لنا التأريخ ما يكفي لتصوير واقع التعليم في المنطقة الواسعة التي حكمها الإسلام في عصر السيرة والراشدين، والتي يتنوع سكانها مابين عرب وفرس وسريان وكرد و أرمن وقبط، وتتنوع معهم ثقافاتهم وأديانهم وعقائدهم، التي حاولت التشبث بالبقاء طويلاً، مستغلة ظروف الحرية الدينية التي أتاحها الإسلام. ومن ثم فنحن لا نعرف على وجه التحديد طبيعة المؤسسات التعليمية في المناطق المفتوحة، وعلاقتها بالدولة والمجتمع، ولا نعرف إلى أي مدى كان التعليم منتشراً، وما موازين الثقافة آنذاك، ولا نعرف شيئاً عن أعداد المتعلمين ومستوياتهم، ومستوى المعلمين وطبيعة المعلومات التي يقدمونها للطلبة، ولا علاقة مراكز الثقافة ومؤسسات التعليم ببعضها داخل الدولة الواحدة، وصلاتها مع مثيلاتها في الدول الأخرى. ثم ما مآل ذلك كله بعد الفتح الإسلامى؟.

إن التأريخ لا يرد على تساؤلنا، ولعله لن يفعل ذلك إلى الأبد، إلا أن نقف على مصادر جديدة لمعرفتنا يكتنزها باطن الأرض، أو تختفي بين أكداس الكتب الكثيرة، التي لا تزال حبيسة لم يعرض لها أحد بالفهرسة والدراسة، فقد زادت معلوماتنا التأريخية خلال العقدين الأخيرين بعد أن نشرت للمرة الأولى مجموعة من المصادر التأريخية، مما يبعث الأمل في المستقبل. أما معلوماتنا عن واقع التعليم في الحجاز في عصر السيرة والراشدين فإنها وإن كانت مشتتة إلا أنها أكثر

وضوحاً، بسبب عناية المؤرخين المسلمين بهذه المدة، وتقييدهم لأخبار السيرة النبوية، وأخبار الخلفاء الراشدين بتفصيل، لما تمثله من أهمية دينية وتشريعية.

لقد وردت معلومات متناثرة عن معرفة أفراد من العرب في الحجاز بالكتابة والقراءة والحساب، حيث استدعت ذلك ضرورات الحياة، وخاصة في المجتمع المكي التجاري، أو حيث الأقلية اليهودية المتمركزة في يثرب، التي كانت تمارس التجارة والزراعة، وتحتفظ بتراثها الديني وكتابتها بالعبرانية.

ولا شك في أن أسماء المتعلمين التي أوردتها المصادر لا تمثل إحصاء دقيقاً، ولكن ينبغي أن لا يبالغ في تصور انتشار التعليم على نطاق أوسع مما أوردت، لأن قلة عدد المتعلمين هي التي استرعت انتباه الإخباريين لذكر أسمائهم.

ويذكر البلاذري أن عدد الكاتبين من قريش عند ظهور الإسلام كان سبعة عشر رجلاً[١].

وقد سمت المصادر بعض الكاتبين، فقد كان أمية بن أبي الصلت نظر الكتب وقرأها في الجاهلية[٢]، وكذلك قيس بن نشبة الذي «كان يتأله في الجاهلية وينظر في الكتب»[٣]، وكان كردوس بن عمرو «يقرأ الكتب وينقل عبارات من الإنجيل»[٤].

وقد ذكر القرآن الكريم معرفة بعض اليهود بالكتابة، وذلك في الآية: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[٥].

(١) البلاذري: فتوح البلدان ٣/ ٥٨٠.
(٢) المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام (١٨/ ٣١٩).
(٣) ابن حجر: الإصابة ١: ٢٥٠.
(٤) ابن حجر: الإصابة ٥: ٦٤٠.
(٥) البقرة: ٧٩.

ولا شك أن ورود مصطلحات الكتابة وأدواتها في القرآن الكريم كاللوح والقرطاس والقلم والمداد يدل على معرفة المخاطبين بها.

وكذلك فإن المستوى البياني والفكري للقرآن الكريم يبين المستوى الثقافي للعرب وقت نزوله، فما فيه من أوجه البلاغة ومعاني الحكمة، والمحاججات والأقيسة العقلية، كل ذلك يحتاج فهمه إلى مستوى ثقافي وذوق لغوي وقدرة عقلية. ثم إن القرآن معجزة بيانية أولاً - وإن ظهرت للبعض فيه أوجه أخرى للإعجاز - تحدى الله بها العرب لعنايتهم الفائقة بفن القول، حتى صار شغلهم الشاغل في ندواتهم، بل في سائر حياتهم. وهل يبلغ التحدي مداه و الإعجاز حده إلا عندما تعجز أمة (فن القول) عن أن تقول مثل القرآن؟.

ولا غرابة أن يرتفع مستوى الثقافة آنذاك مع قلة عدد الكاتبين، بل ربما كان ذلك أدعى إلى حفظ الصدر وحدَّة الفكر واعتماد السليقة، فلابد من التمييز بين (الثقافة) و(تعلم الكتابة)، فالعلم والتقاليد يمكن نقلها من جيل إلى آخر عن طريق التواصل بين الأجيال حتى في المجتمعات الأمية. وقد قامت العائلة والقبيلة بنقل التراث الثقافي في المجتمع العربي قبل الإسلام، وكانت الأسمار في مجلس القبيلة الذي يحضره الشعراء والنسابون و الإخباريون، ثم الأسواق الأدبية، التي تجتمع فيها القبائل، تتناشد الأشعار وتتفاخر بالأحساب والأنساب، وتزهو بأخبار الكرم والشجاعة والمروءة، من أهم وسائل نقل التراث الذي كان ينمو بإضافة الأجيال اللاحقة على السابقة، وقد هيأت هذه الاجتماعات فرصاً مهمة للتلاقح الثقافي و اللغوي، ولتوحيد المقاييس النقدية والذوقية، وللتقريب بين لغات العرب، ومهدت بذلك لفهم القرآن الذي أنزل بلغة قريش.

*****

المبحث الأول

السمات العامة للتعليم

إن الاعتماد الكبير على الذاكرة النشيطة في نقل التراث، وعدم اكتراث جمهور العرب بتعلم الكتابة والقراءة، أدَّيا إلى إعاقة ظهور مؤسسات التعليم، فلم يقم منها سوى الكتَّاب الذي لم ينتشر إلا على نطاق محدود في المراكز الحضرية، مثل مكة والطائف ويثرب، فلم يكن هناك تعليم عام، بل كانت الأمية هي الطاغية، وورد في الحديث: «إنَّا أمة أمية لا نكتب و لا نحسب»[1]. ومن ثم لم تكن عندهم تقاليد متبلورة للتعليم، فكان أن حدد الإسلام المعالم كاملة، فأوضح أهمية العلم وربطه بالدين، فعزّز بذلك مكانة العلماء، وبينّ آداب التعليم وتقاليده بعمق وشمول، فأصبحت تحتذى طوال القرون اللاحقة، ولاتزال قادرة على إعطائنا الكثير من القيم الثقافية والتربوية الراشدة، إذ ربما تكون من أهم معطيات عصر السيرة والراشدين في نطاق التعليم.

لقد قامت حركة التعليم في عصر السيرة والراشدين على أكتاف رجال يعدون على أصابع اليد، ولكن الحافز الديني القوي - الذي جعل الأمة تحدد أهدافها وتوحد قواها لبلوغها - أوجد وسطاً ملائماً لانتشار التعليم. وبعد زمن يسير ظهرت آثار حركة التعليم الجديدة في إظهار الطاقات الكامنة، فإذا بأعداد هائلة تعنى بالفكر والعلم، وتظهر القدرة والإبداع في ميادين شتى، فتسهم في بناء الصرح الثقافي والحضاري الجديد.

ولا شك في أن الانسجام العقدي والفكري والاجتماعي، ووضوح الرؤية بتحديد الأهداف العامة للدولة والمجتمع، دفعا بقوة حركة التعليم، بل الحركة

(١) رواه مسلم: الصحيح ٢: ٧٦١.

الثقافية العامة، لمواكبة التقدم العسكري والسياسي، وحل المشكلات الجديدة في الدولة الواسعة. فتحديد وجهة التعليم وأهدافه لأول مرة كان من معطيات عصر السيرة والراشدين، وقد أدت هذه الحوافز القوية والضوابط الجديدة إلى انتشار التعليم بسرعة خارقة، لا تقل دهشة الإنسان أمامها عن دهشته إزاء سرعة الفتوح العسكرية، إذ لا ريب في أن الإسلام أحدث (ثورة التعليم)، التي أثمرت «النضوج الفكري المباغت»، وشكلت بذلك «ظاهرة خارقة».

يقول العالم الألماني مورتز كانتور: «إن شعباً ظل قروناً متتابعةً معزولاً عن المؤثرات الحضارية التي كان يتعرض لها جيرانه، ولم يؤثر هو نفسه على الآخرين كل هذا الوقت، نهض فجأة وفرض عقيدته وقوانينه ولغته على الأمم الأخرى إلى درجة لا مثيل في التأريخ لظاهرة غريبة مثلها، وأسبابها جديرة بالدراسة والتقصي، لأننا في الوقت نفسه متأكدون من أن هذا النضج الفكري المباغت الذي تكون بسرعة تشبه سرعة حدوث الانفجار لم يأت من تلقاء نفسه»[1].

وتتطابق رؤية عالم آخر هو فلوريان كاجوري مع ماذكره مورتز كانتور، قال كاجوري في كتاب «تأريخ تدوين الرياضيات»: «إن العرب يمثلون ظاهرة خارقة في تأريخ المدنية، حيث القبائل الجاهلة المنقسمة على نفسها في الجزيرة العربية، التي لم تعرف الحكم ولا الحرب، قد انصهرت في أتون الحماس الديني خلال عشر سنوات، وجعلت من نفسها أمة قوية، وبعد مئة عام من مسيرة الفتوحات الجليلة، رأيناهم يتصدرون أمماً غيرهم في الجهد الفكري، و أصبح المسلمون هم علماء زمانهم الأجلاء»[2].

لقد أعاد الإسلام صياغة شخصية الإنسان، ففجر طاقاته الإبداعية الكامنة من أجل العلم والعمل لبناء حضارة إنسانية متوازنة، وكانت نظرية المعرفة

(١) الدكتور سيد معظم حسين: التعليم الإسلامي ١٢٨، «مناشدة لإقامة جامعة إسلامية حديثة» حيث تم اقتباس النص بواسطته، ولم أقف على كتاب كانتور.
(٢) المصدر السابق.

الإسلامية بشمولها وتكاملها واتساقها، وسيلته لإحداث التغيير الجذري في كيان الإنسان وبنية المجتمع، تلك النظرية التي غرس القرآن بذرتها وعبّرت عنها «السنة» في فجر تأريخ الإسلام.

وقامت الدولة الناشئة في المدينة المنورة بمسؤوليتها في بداية الأمر، فقيادتها أكثر وعياً للحاجة إلى التعليم، وهي تواجه مسؤولية إدارة الدولة وحاجاتها المتنوعة للتعليم.

وصدرت البادرة الأولى عن الرسول ﷺ نفسه، عندما أمر بعض المتعلمين من المسلمين بتعليم الآخرين، وأمر بعض الأسرى ببدر بتعليم شباب الأنصار الكتابة مقابل مفاداتهم، وأرسل المعلمين - وسط الأخطار - إلى البوادي للدعوة ولتعليم الناس القرآن وتفقيههم بالدين.

وما إن أشعلت الدولة الفتيلة حتى انطلقت الأمة لتوسع من نطاق التعليم، بحيث أصبح لا قبل للدولة باحتواء مؤسساته أو الإشراف عليها.

وهكذا تحولت حركة التعليم إلى كتاتيب وحلقات علم ومجالس في المساجد وفي دور العلماء، وظهرت جذور المدارس الفكرية المتنوعة متمثلة بمدرسة أبي موسى الأشعري في القراءات في البصرة، ومدرسة عبدالله بن مسعود في الفقه في الكوفة، ومدرسة عبدالله بن عباس في التفسير بمكة، والمدرستين البصرية والكوفية في النحو.

والحق أن مسؤولية الدولة عن التعليم كانت محدودة النطاق، إذ تركت للناس حريتهم في التعليم مع أنها منحتهم التشجيع والمؤازرة. وكان الانسجام في الأهداف والتطلعات يوحد بين الحكومة والأمة، فلم تكن انطلاقة التعليم الواسعة تهدد الدولة، بل كانت تحقق لها القوة والاستقرار برغم عدم هيمنتها عليها.

ولا شك في أن حرية التعليم وبعده عن هيمنة الدولة ظَلَّ سمةً مميزةً له طوال القرون اللاحقة، إلى أن ظهرت المدارس والجامعات الأولى في الإسلام، تلك التي رعتها الدولة، غير أنها لم تكن في الحقيقة تحت إشراف الدولة، إلا من حيث إمدادها بالنفقات ومساعدتها على البقاء، فقد استمرت حرية التعليم بعد ظهور تلك المؤسسات.

إن مبدأ «مجانية التعليم» وكذلك مبدأ «التعليم للجميع» هما من معطيات ذلك العصر. فقدسية التعليم و ارتباطه بالعقيدة جعلت رواده يهدفون إلى خدمة المبدأ عن طريق التعليم بدلاً من التكسب به. وقد استمر هذا المبدأ قروناً طويلة، كان التعليم خلالها شعبيّاً بما تحمله هذه الكلمة من معنى، يناله الغني والفقير، بل إن حظ الفقراء فيه أعظم من حظ الأغنياء، وتفرغهم له و بروزهم فيه كان أكبر، ولم يكن قاصراً على الطبقات الحاكمة والغنية، كما هو حال العصور الوسطى الأوربية. ومنذ بدء حركة التعليم في الإسلام، اقترن العلم بالعمل، فلم يفصل بين العلم وحاجيات الحياة الواقعية طوال عدة قرون، باستثناء تيارات تمثل الترف الفكري والنزوع العقلي النظري، ومن أبرزها مدرسة المعتزلة التي لم يكتب لها الهيمنة على الحياة الفكرية، وإن علا صوتها - بقوة السلطان - زمناً يسيراً في العصر العباسي.

واقتران العلم بالعمل من أهم المبادئ التي صبغت فلسفة التعليم في الإسلام فيما يشبه البراجماتيكية المعاصرة في عمليتها، ويخالفها في ماديتها ونفعيتها، وقد ولَّد هذا الطابع العملي آثاراً تربوية عميقة، وأثمر حضارة باهرة شاركت في بناء صرح التمدن البشري.

إن تقاليد التعليم عند المسلمين مدينة لذلك العصر بمبدأ «التعليم المستمر» طوال الحياة، وهكذا انقطع رجال كثيرون للعلم من المهد إلى اللحد، ويندر أن نجد

عالماً ترك التعلم أو اعتقد أنه وصل إلى الكمال. ولو استمر هذا المبدأ يسيطر على حياتنا الثقافية حتى الوقت الحاضر لكان لنا شأن آخر في الحركة الثقافية العالمية.

وقد اهتم الإسلام بتعليم الكبار «فكان الصحابة يتعلمون في كبر سنهم»، ولكن الأصل هو البدء بالتعلم عند الصغر، غير أن من فاته ذلك يلقى الباب مفتوحاً أمامه. ومن أبرز خصائص التعليم في ذلك العصر قيامه على الجهود الفردية، فمبدأ «التعلم الذاتي» كان مهيمناً على نشاط العلماء والمتعلمين، حيث ظل العلماء قروناً طويلة يقومون بتعليم أنفسهم بجهودهم الخاصة، دون الارتباط بمؤسسات التعليم، أو تلقي الحوافز التشجيعية من الدولة. والجدير بالذكر أن مبدأ «تراكم المعرفة» و«تجميع العلم» كان من خصائص الحركة الفكرية في القرون الأولى عن طريق تنويع مصادر التلقي والأخذ عن الشيوخ الكثيرين، والرحلة في طلب العلم لتجميعه. تلك الرحلة التي بدأت في عصر الراشدين، واتسع نطاقها في القرون اللاحقة، والتي أثمرت التجانس الفكري، و التلاقح الأدبي، والحفاظ على وحدة الهوية الثقافية. كما أثمرت – فيما بعد – الدراسات المتعلقة بالبلدان والسكان والجغرافية والإنثروبولوچيا.

إن هذه السمات العامة لبداية التعليم في الإسلام تدعمها النصوص المبعثرة في المصادر التراثية، وهي مصادر تحتاج إلى قراءات معاصرة، تقف على قيم التعليم وتقاليده في عصر السيرة والراشدين و ما بعده من عصور التأريخ الإسلامي، وتحدد مجالات توظيفها في بنائنا الثقافي و مؤسساتنا التعليمية المعاصرة، مما يؤكد الهوية الثقافية لأمتنا، ويحدد عملية الأخذ والعطاء المتبادلة بيننا وبين الثقافات المتنوعة، ومؤسسات التعليم المختلفة المعاصرة.

*****

المبحث الثاني

نظرة الإسلام إلى العلم و التعليم

منح الإسلام العلم قدسية حين جعل «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[١]، فثمة قدر من العلم ضروري لإيمان المسلم وعبادته ومعاملاته، وهو القدر المفروض عليه تعلمه، وما سواه فهو من فروض الكفاية.

وقد وردت أحاديث كثيرة في الحث على طلب العلم ونشره وبيان فضل طالبه، فطلبة العلم تبسط لهم الملائكة أجنحتها[٢]، وتحفهم الملائكة، وتغشاهم الرحمة، وتنزل عليهم السكينة، ويذكرهم الله فيمن عنده[٣].

وطلب العلم توفيق من الله للإنسان «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[٤].

والعلم مثل المال، يصلح للتصدق به على الناس «**من الصدقة أن يتعلم الرجل العلم فيعمل به ثم يعلمه**» [٥].

وطلب العلم عبادة، فلابد من استحضار النية فيه «من تعلم علماً مما يُبْتَغَى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[٦].

وتترتب على العمل مسؤولية دينية تضبط توجيهه نحو خير الإنسان وسعادته، وتمنع انحرافه وتهديده للعدل والأمن البشري، وفي القرآن: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[٧].

---

(١) أخرجه ابن ماجة: السنن ١: ٨١ حديث رقم ٢٢٤.
(٢) أخرجه ابن ماجة: السنن ١: ٨٢ حديث رقم ٢٢٦ وفيه عاصم بن أبي النجود اختلط بأَخَرَةٍ.
(٣) أخرجه ابن ماجة: السنن ١: ٨٢ حديث رقم ٢٢٥.
(٤) أخرجه البخاري: حديث رقم ٧١، ومسلم: الصحيح ٢: ٧١٨.
(٥) ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ١٢٣.
(٦) أخرجه أبو داود: السنن حديث رقم ٣٦٦٤ و أحمد: المسند ٢: ٣٣٨.
(٧) الإسراء ٣٦.

فالحواس مسؤولة دينيّاً عن العلم طلباً وتنفيذاً، والعالم يسأل عن موقفه العلمي، ففي الحديث: «**لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه**»(١).

و الإحساس بالمسؤولية الدينية ولَّد ضوابط خلقية، وقواعد منطقية، وآداباً عامة، تركت تأثيرها في الحركة الفكرية، من ذلك ضرورة التحلي بالأمانة العلمية، فالعالم لا يقول جزافاً، لأنه مسؤول عن صحة المعلومات التي يدلي بها، «فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: لا أعلم»(٢). وهو لا يكتم العلم ولا يبخل به، إذ ليس العلم الذي حازه ملكاً خالصاً له، بل فيه «حق عام» ربما يكون أوسع من الحق العام في الملكية الفردية.

لذلك توعد القرآن والحديث العلماء الذين يكتمون العلم، ففي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾(٣). وفي الحديث: «**من سئل عن علم نافع فكتمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار**»(٤).

و الإنسان لا يولد عالماً، غير إنه قادر على تحصيل العلم ببذل الجهد، فهو يولد على الفطرة، وأبواه يؤثران تأثيراً بالغاً في نقل الأفكار والقيم والعقائد إليه، وفي الحديث: «**إنما العلم بالتعلم**»(٥).

---

(١) أخرجه الترمذي بلفظ مقارب: الجامع حديث رقم ٢٤١٧ وقال: هذا حديث حسن صحيح. والنص من عند الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي و آداب السامع ١: ٨٨ - ٨٩.

(٢) البخاري: الصحيح، كتاب التفسير ٣٠، ٣٨، ٤٤، وأحمد: المسند ١: ٤٣١.

(٣) البقرة ١٥٩.

(٤) أخرجه أبو داود: السنن حديث رقم ٣٦٥٨، والترمذي: الجامع حديث رقم ٢٦٤٩، وابن ماجة: السنن حديث رقم ٢٦٦.

(٥) البخاري: الصحيح، كتاب العلم ١٠.

وما دام للتعليم قدسية، ومنه ما هو فرض متعين على الأفراد، فلابد أن يكون «التعليم للجميع» ميسراً لا تعيقه أي عوائق مادية أو اجتماعية، وهكذا ساد مبدأ «مجانية التعليم» وورد النهي عن أخذ الأجرة عليه، فقد نهى الرسول ﷺ أبي بن كعب عن قبول هدية من أحد طلابه، وقال له: «**إن أخذتها فخذ بها قوساً من النار**»(١). ويبدو أن النهي تكرر مع عبادة بن الصامت - إن لم يقع وهم في الاسم من قبل الرواة - قال عبادة: «علَّمت ناساً من أهل الصفة الكتاب والقرآن، فأهدى إليَّ رجل منهم قوساً فقلت: ليست بمال وأرمي عليها في سبيل الله ﷻ، لآتين رسول الله ﷺ فلأسألنه، فأتيته فقلت: يا رسول الله، رجل أهدى إليَّ قوساً ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن وليست بمال وأرمي عليها في سبيل الله؟ قال: «**إن كنت تحب أن تطوق طوقاً من نار فاقبلها**»(٢).

وقد تكفلت الدولة في عصر الراشدين بدفع نفقات التعليم أحياناً، وقام المجتمع بذلك أحياناً أخرى، ولم يعرف عن طلبة العلم أنهم دفعوا نفقة للتعلم آنذاك.

ونظراً لأن العلم كانت تحفظه صدور العلماء غالباً، ويتم نقله مشافهة، فإن العلم ارتبط بالعلماء، فهو يبقى ما بقوا، وينقص إذا توفي العالم، وهذا ما يشير إليه حديث قبض العلم: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**»(٣). فلا غرابة إذا اعتبر موت العالم ثلمة في الإسلام(٤)، فالعلماء ورثة الأنبياء(٥). ورثوا عنهم العلم، وهذا

(١) البيهقي: السنن ٦: ١٢٦.
(٢) أخرجه أبو داود: السنن، كتاب البيوع، باب في كسب المعلم حديث رقم ٣٤١٦، وفي إسناده المغيرة بن زياد أبو هاشم الموصلي صدوق له أوهام، كما في تقريب التهذيب لابن حجر.
(٣) البخاري: الصحيح (فتح الباري١: ١٩٤ حديث رقم ١٠٠). ومسلم رقم ٢٦٧٣.
(٤) الدارمي: السنن، المقدمة ٣٢.
(٥) البخاري: الصحيح، كتاب العلم ١٠.

الإحساس بخطورة نقص العلم بسبب موت العلماء كان من أقوى الدوافع التي أدت إلى اختيار العلماء طريق تقييد العلم وعدم الاكتفاء بحفظ الصدور، ذلك الاختِيار الذي كان له أهمية كبرى في حفظ علوم الإسلام، ولم يكد القرن الأول - الذي وقع فيه الخلاف والجدل حول كتابة الحديث - ينتهي حتى ظهرت أولى المصنفات دلِيلاً على غلبة الاتجاه نحو التدوين. ولكن حفظ الصدور لم ينقطع، بل استمر التأكيد عليِه قروناً طويلة، ولازال التعليم الإسلامي يؤكد على «الحفظ» حتى الوقت الحاضر.

وتمتع العلماء - لارتباط العلم بهم - بمكانة عالية واحترام كبير في ذلك العصر وما بعده.. قال الشعبي: «**أمسك ابن عباس بركاب زيد بن ثابت، فقال: أتمسك لي وأنت ابن عم رسول الله ؟ قال: إنا هكذا نصنع بالعلماء**»[١]. وكذلك فعل مرة مع أبي بن كعب قائلاً: «**إنه ينبغي للحبر أن يعظم ويشرف**»[٢].

*****

المبحث الثالث

آداب التعليم وتقاليده

إن آداب التعليم وتقاليده عند المسلمين مدينة بأصولها إلى عصر السيرة والراشدين، برغم أنها تبلورت على مر الأيام، كما تظهر في المؤلفات المتخصصة.

ومن أقدم الآداب والتقاليد ظهوراً ما يتعلق بتنظيم مجلس العلم والحلقة العلمية، فقد نهى الرسول ﷺ عن الجلوس وسط الحلقة[٣]، وأن يجلس المتعلم

(١) الخطيب: الجامع لأخلاق الراوي و آداب السامع ١: ١٨٨، وابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ١:١٢٨.

(٢) الخطيب: الجامع لأخلاق الراوي و آداب السامع ١: ١٨٨.

(٣) أخرجه أبو داود: السنن ٤: ٢٥٨، والترمذي: الجامع حديث رقم ٢٧٥٣ وقال: هذا حديث حسن صحيح. والخطيب: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١: ١٧٦.

بين رجلين إلا بإذنهما[١]. وسمح للرجل بالجلوس في المكان إذا فسح له فيه، فقال: «**إذا أخذ القوم مجالسهم، فإن دعا رجل أخاه، فأوسع له في مجلسه فليأته، فإنما هي كرامة أكرمه، فليجلس فيه**»[٢]. وأمر بحفظ حق الرجل في مجلسه، فقال: «**إذا قام أحدكم من مجلسه ثم رجع إليه، فهو أحق به**» [٣].

ومن السنة احترام مجلس العلم، وعدم رفع الصوت أو اللغط فيه، والتزام السكينة. قال أسامة بن شريك: «**أتيت النبي ﷺ وأصحابه، كأنما على رؤوسهم الطير**»[٤].

وقد وصف أبو إسحاق السبيعي تنظيم الحلقة العلمية في مجلس الصحابي البراء بن عازب فقال: «**كنا نجلس عند البراء بعضنا خلف بعض**»[٥]. وهو نص يشير أيضاً إلى سعة الحلقة.

ومن الحلقات المعروفة آنذاك في المسجد النبوي حلقة الصحابي جابر بن عبدالله الأنصاري[٦].

و يرجع كثير من آداب طلبة العلم مع الشيوخ إلى ذلك العهد، فاحترام العالم، وعدم الإلحاح في الاستئذان عليه أو التردد على منزله، والصبر على التلقي، وتحمل الشدائد في طلب العلم، كل ذلك يمكن أن نقف عليه من الخبر الآتي الذي يحكيه ابن عباس، قال: «**لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من**

(١) أخرجه أبو داود: السنن حديث رقم ٤٨٤٤، والخطيب: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١: ١٧٨.

(٢) أورده الهيثمي: مجمع الزوائد ٨: ٥٩ وقال: «رواه الطبراني وإسناده حسن»، و أخرجه الخطيب: الجامع ١: ١٧٨.

(٣) أخرجه أبو داود: السنن حديث رقم ٤٨٥٣.

(٤) أخرجه أبو داود: السنن حديث رقم ٣٨٥٥، والخطيب: الجامع ١: ١٩٢ .

(٥) الخطيب: الجامع ١: ١٧٤.

(٦) ابن حجر: الإصابة ١: ٤٣٥.

الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم اليوم كثير. قال: واعجباً لك يا ابن عباس! أترى الناس يفتقرون إليك، وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم؟ قال: فترك ذاك، وأقبلت أنا أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل، فآتي بابه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، تسفي الريح عليَّ من التراب فيخرج فيقول: يا ابن عم رسول الله ماجاء بك؟ ألا أرسلت إليَّ فآتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث. قال: فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رآني، وقد اجتمع الناس حولي يسألوني. فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني»[١].

وثمة رواية أخرى توضح العلاقة بين صغار العلماء وكبارهم في ذلك العصر، فاحترام الكبير مبدأ إسلامي عام، وقد كان معهوداً في الحياة العلمية أيضاً، قال الصحابي سمرة بن جندب: «**لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلاماً، فكنت أحفظ عنه، وما يمنعني من القول إلا أن هاهنا رجالا هم أسن مني**»[٢].

والتبكير في الحياة اليومية وعدم الإخلاد للنوم بعد الفجر سمت عام في حياة مسلمي ذلك العصر، لكن ابن عمر يرى أن حديث «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**» يراد به التبكير في طلب العلم والصلاة في الصف الأول في المساجد[٣].

وقد انتبه المسلمون في ذلك العصر إلى أهمية التعلم في الصغر، وقد أرشدهم الرسول ﷺ إلى تعليم الصغار أحكام الصلاة وتربيتهم عليها وهم في السابعة من العمر.

---

(١) الخطيب: الجامع ١: ١٥٨ - ١٥٩.
(٢) الخطيب: الجامع ١: ٣١٨.
(٣) ابن حجر: الإصابة ١: ١٥٠.

وقد كشف عمر رضي الله عنه عن جانب سيكولوجي مهم عندما نصح مواطنيه بالتعلم في الصغر، فقال: «**تفقهوا قبل أن تسودوا**»(١). لأن الكبير في السن وصاحب الشأن في المجتمع، قد يأنفان من السؤال أو الجلوس في حلقات العلم خلافاً للصغير، كما أن عمر رضي الله عنه كان يدرك حدة الذكاء وقوة الاستعداد لدى الصغار، فكان يحرص على سؤالهم والإفادة من نباهتهم.

وقد استمر هذا المبدأ «**التعلم في الصغر**» يسود حياة المسلمين التعليمية حتى الوقت الحاضر، كما أن التعليم في إطار الحضارة الغربية يلتقي مع التعليم الإسلامي في مراعاة هذا المبدأ.

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم اختلاف الاستعداد العقلي والقدرة على الفهم بين الناس في الحديث: «**نضر الله امرأً، سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه**»(٢).

وقد راعى الصحابة ذلك، فقال عبدالله بن مسعود: «**إن الرجل ليحدث بالحديث، فيسمعه من لا يبلغ عقله فهم ذلك الحديث، فيكون عليه فتنة**»(٣).

كذلك أدرك عبدالله بن مسعود أثر الأحوال النفسية والجسمية في عملية تلقي العلم، وأوصى بمراعاة ذلك، فقال: «**إن للقلوب شهوة وإقبالاً، وإن للقلوب فترة و إدباراً، فاغتنموها عند شهوتها، ودعوها عند فترتها و إدبارها**»(٤).

وقال: «**حدّث القوم ما أقبلت عليك قلوبهم، فإذا انصرفت قلوبهم فلا تحدثهم، قيل له: ما علامة ذلك؟ قال: إذا حدقوك بأبصارهم. فإذا تثاءبوا واتكأ بعضهم على بعض، فقد انصرفت قلوبهم فلا تحدثهم**»(٥).

---

(١) البخاري: الصحيح فتح الباري ١: ١٦٥ باب ١٥ بإسناد صحيح.
(٢) أخرجه الترمذي: الجامع، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع.
(٣) الخطيب: الجامع ٢: ١٠٩.
(٤) الخطيب: الجامع ١: ٣٣١.
(٥) المصدر نفسه ١: ٣٣٠.

وقد بين ابن مسعود أن من السنة مراعاة ذلك، فقال: «**أما إني أخبر بمكانكم، فأترككم كراهية أن أملكم. إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة بين الأيام مخافة السأم علينا**»(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها لعبيد بن عمير: «**ألم أحدث أنك تَجلس ويُجلس إليك ؟ قال: بلى. قالت: فإياك و إملال الناس وتقنيطهم**»(٢).

واحترام الحرف العربي حامل الوحي الإلهي كان مستقرّاً في نفوس أهل ذلك العصر، فالقرآن الكريم مكتوب به، وأحاديث الرسول ﷺ أيضاً، وقد استمر هذا الاحترام لدى الناس قروناً طويلة، بل مازالت آثاره قائمة في حياتنا، عندما يرفض بعض الناس رمي الكتابة العربية على الأرض.

قيل لأنس بن مالك الصحابي الجليل رضي الله عنه (ت ٩٣ هـ): «**كيف كان المؤدبون على عهد الأئمة: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم؟ قال أنس: كان المؤدب له أجانة(٣)، وكل صبي يأتي كل يوم بنوبته ماء طاهرا، فيصبونه فيها، فيمحون به ألواحهم. قال أنس: ثم يحفرون حفرة في الأرض، فيصبون ذلك الماء فيها فينشف. قلت: أفترى أن يلعط ؟(٤) قال: لا بأس به، ولا يمسح بالرجل، ويمسح بالمنديل وما أشبهه. قلت: فما ترى فيما يكتب الصبيان في الكتاب من المسائل؟ قال: أما ما كان من ذكر الله فلا يمحوه برجله، ولا بأس أن يمحو غير ذلك مما ليس في القرآن**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (فتح الباري ١: ١٦٣ حديث رقم ٧٠)، ومسلم: الصحيح ٤: ٢١٧٢.
(٢) الخطيب: الجامع ٢: ١٢٨.
(٣) إناء من فخار يوضع فيه الماء.
(٤) يلعط: يلطع، أي يلحس، وهو مقلوب.
(٥) ابن سحنون: آداب المعلمين ٤٠ - ٤١.

فهذه الصورة الرائعة تعبر أصدق تعبير عما كان في نفوس أبناء ذلك العصر من احترام للحرف العربي، عندما يكتب به الوحي الإلهي، فيختارون الماء الطاهر لمسحه، ويحفرون له في الأرض ويصبونه لينشف.

كما تبين هذه الرواية وجود الكتاتيب والمؤدبين في عصر الراشدين واستخدام الألواح في التعليم.

وقد ترك خروج الصحابة من المدينة إلى الأمصار مع جيوش الفتح تأثيراً بالغاً في انتشار العلم، وتفرق العلماء، وقد ظهرت تقاليد علمية استمرت راسخة لقرون طويلة، وتركت آثاراً عميقة في تواصل الحركة العلمية في أرجاء العالم الإسلامي، وفي توحيد الآداب والمناهج والتقاليد العلمية، وفي التقريب بين وجهات نظر العلماء الأخرى، وفي إعادة تجميع العلم المنتشر، تلك هي الرحلة في طلب العلم. فقد سار جابر بن عبد الله شهراً حتى قدم الشام، ليسمع حديثاً واحداً لم يسمعه من قبل، كان سمعه عبدالله بن أنس رضي الله عنه من رسول الله ﷺ[1]، ورحل إلى مصر للقاء مسلمة بن مخلد رضي الله عنه لسماع حديث بلغه عنه[2].

وقال الحارث بن معاوية الكندي: إنه ركب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليساله عن ثلاث خلال، فقدم المدينة، فقال له عمر رضي الله عنه: ما أقدمك عليَّ؟ قال: لأسألك عن ثلاث. قال: وما هن؟ قال: ربما كنت أنا والمرأة في بناء مبني، فتحضر الصلاة، فإن صليت أنا وهي كانت بحذائي، وإن صلت خلفي خرجت من البناء. فقال عمر رضي الله عنه: تستر بينك وبينها بثوب، ثم تصلي بحذائك إن شئت قال: وعن الركعتين بعد العصر؟ فقال: نهاني عنهما رسول الله ﷺ. قال: وعن القصص، فإنهم أرادوني على القصص؟ فقال: ماشئت. كأنه كره أن يمنعه. قال:

(١) البخاري: الصحيح ١: ٢٩، والخطيب: الجامع ٢: ٢٢٥، وابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ١: ٩٣.

(٢) الخطيب: الرحلة في طلب الحديث ٥٦.

إنـما أردت أن أنتهـي إلى قولك. قال: أخشـى عليك أن تقـص، فترفع عليهم في نفسـك، ثم تقص فترفع حتى يخيل أنك فوقهم بمنزلة الثريا، فيضعك الله تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك[١].

ورحـل أبو أيـوب الأنصاري إلى عقبـة بن عامر، وكان بمصر ليسـمع منه حديث: «**من سـتر على أخيه في الدنيا، سـتر الله عليه في الآخرة**». ولم يحل رحله حتى رجع إلى بيته[٢].

وقـال عبدالله بن مسـعود رضي الله عنه: «**لو أعلم أحداً أعلـم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته**»[٣].

إن طرق تلقي العلم في عصر السيرة والراشدين تتمثل في السماع والعرض والمذاكرة والسـؤال. وكان الاعتـماد على المحاضرات الشـفهية لا الكتب، وهو الأسـلوب الذي اعتمده الرسـول ﷺ في توضيح معالم الدين ونشر الإسلام[٤]. أما الرسائل المكتوبة فكان نطاقها محدوداً.

واعتبر بعض الصحابة هذا الأسـلوب شـيئاً من «السـنة»، فقال أبو سعيد الخـدري: «**لا نكتبكـم، ولا نجعلهـا مصاحـف، وكان رسـول الله ﷺ يحدثنـا فنحفظ، فاحفظوا عنا، كما حفظنا نحن عن نبيكم**»[٥].

والسـماع هـو الطريقة الأكثر انتشـاراً لقلة المـواد المكتوبـة، فالطلبة يتلقون المعلومات عن طريق سماع الشيخ الذي يلقيها بصوته بعد أن حفظها بصدره.

---

(١) المتقي الهندي: كنز العمال ٥: ٨٥٥ نقلاً عن مسند أحمد وسنن سعيد بن منصور.
(٢) ابـن عبدالبر: جامـع بيان العلم وفضله ١: ٩٣ - ٩٤، والخطيـب: الكفاية ٤٠٢، والرحلة في طلب الحديث ٥٦، والجامع ٢: ٢٢٦.
(٣) الخطيب: الكفاية ٤٠٢.
(٤) صالح العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية ١٩.
(٥) الخطيب: تقييد العلم ٣٨.

والإلقاء ينبغي أن يكون واضحاً، وقد يؤكد الشيخ المعنى بإعادة الكلام، ليتمكن المستمع من إتقان حفظه، وقد كان هذا هو أسلوب الرسول ﷺ. وقد أنكرت عائشة رضي الله عنها على أبي هريرة رضي الله عنه سرد الحديث والتعجل في إلقائه، فقالت لابن أختها عروة بن الزبير: «**ألا يعجبك أبو هريرة، جاء فجلس إلى جانب حجرتي، يحدث عن رسول الله ﷺ يسمعني ذلك، وكنت أسبح، فقام قبل أن أقضي سبحتي، ولو أدركته لرددت عليه، إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث سردكم**»(١).

أما العرض: فهو أن يقرأ الطالب على العالم من نسخة مكتوبة.

قال زيد بن ثابت: «**كنت أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ.. فأكتب وهو يملي عليَّ، فما أفرغ حتى يثقل، وإذا فرغت قال: اقرأه عليَّ، فإن كان فيه سقط أقامه، ثم يخرج به**»(٢).

ولما أراد بشير بن نهيك أن يتصرف عن أبي هريرة أتاه بكتبه التي كتبها عنه فقرأها عليه، فقال: «**هذه سمعتها منك؟ قال: نعم**»(٣).

لقد اتخذ العلماء فيما بعد من هذه السوابق دليلاً على صحة المعارضة بين الفرع المكتوب وأصله الذي كتب عنه. وقد روي عن علي رضي الله عنه قوله: «**القراءة على العالم بمنزلة السماع منه**»(٤).

وروي عن عبدالله بن عباس قوله: «**اقرؤوا عليَّ، فإن قراءتكم عليَّ كقراءتي عليكم**»(٥).

(١) البخاري: الصحيح حديث رقم ٣٥٦٨، والخطيب: الجامع ١: ٤١٤.
(٢) ذكره الهيثمي: مجمع الزوائد ١: ١٥٢ وقال: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثوقون». والخطيب: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢: ١٣٣.
(٣) الخطيب: الجامع ٢: ١٢٤.
(٤) الرامهرمزي: المحدث الفاصل ٧٦ ب.
(٥) الترمذي: الجامع ٢: ٣٣٧.

وأما المذاكرة فقد قال الصحابي أبو نضرة العبدي: «**كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا تذاكروا العلم وقرؤوا سورة**»(١).

وكان الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري يوصي بالمذاكرة، لتثبيت المعلومات، يقول: «**تحدثوا وتذاكروا، فإن الحديث يذكر بعضه بعضاً**»(٢).

ولم تقصر المذاكرة على الحديث، بل كانت في الفقه أيضاً، فقد أتى أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد العشاء، فقال له عمر رضي الله عنه: «**ما جاء بك؟ قال: جئت أتحدث إليك. قال: هذه الساعة؟ قال: إنه فقه. فجلس عمر، فتحدثا طويلاً. ثم إن أبا موسى قال: الصلاة يا أمير المؤمنين. فقال عمر: إنا في صلاة**»(٣).

وأما السؤال فهو أسلوب شائع حيث كان الصحابة يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام عما يعرض لهم، ويحتاجون لمعرفة حكم الدين فيه.

وقد روي عن علي رضي الله عنه ما فيه الحث على السؤال العلمي بقوله: «**ألا رجل يسأل فينتفع وينفع جلساءه**»(٤).

*****

(١) الخطيب: الجامع ٢: ٦٨.
(٢) أورده الهيثمي: مجمع الزوائد ١: ١٦١ وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح. و أخرجه الخطيب: الجامع ١: ٢٣٧.
(٣) المتقي الهندي: كنز العمال ١٠: ٢٥٣.
(٤) المتقي الهندي: كنز العمال ١٠: ٣٠٢.

الفصل الثاني

التطبيقات والمراكز والموضوعات

المبحث الأول

النشاط التعليمي

تمهيد:

أ - النشاط التعليمي بمكة قبل الهجرة:

كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم مكان اجتماع المسلمين في مكة، يوم أن كانت أعدادهم قليلة، يتسربون إليها خلسة خوفاً من قريش، حيث يلتقون الرسول ﷺ، ويتعلمون منه أمور دينهم، ويتلقون عنه ما ينزل من القرآن[1].

ومن المعروف أن نفراً منهم كان يعرف الكتابة في هذه المرحلة المبكرة، فدوَّن بعض سور القرآن الكريم، ومما يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اطلع على صحيفة فيها صدر سورة طه، فتأثر عند قراءتها وأسلم.

وهذا الخبر يفيد معرفة عمر رضي الله عنه القراءة في المرحلة المكية[2]، ومعرفة خباب رضي الله عنه - وهو الذي كان يقرأ الصحيفة على فاطمة أخت عمر رضي الله عنها - القراءة. وكان عبدالله بن مسعود أول من علَّم القرآن بمكة[3].

ولا شك أن ظروف المسلمين الصعبة ومواجهتهم العنيفة مع قريش، كانت تقف حائلاً أمام توجيه معظم اهتمامهم للتعليم، إذ إن الاستقرار وهدوء البال يساعدان على انتشاره، كما أن الحاجة العملية للدعوة الإسلامية - في بدايتها - كانت محدودة. وكان في المسلمين الأوائل عدد من المتعلمين.

---

(١) ابن هشام: السيرة ١: ٢٥٣ حاشية (١)، والحاكم: المستدرك ٣: ٥٠٢ - ٥٠٣.
(٢) المصدر نفسه ١: ٣٦٧ وما بعدها.
(٣) ابن سعد: الطبقات ٣: ١٥١.

ب - النشاط التعليمي بالمدينة:

كان المكيون أوفر حظّاً من الأنصار في انتشار الكتابة بينهم، وهذا عائد إلى أن الحاجة إلى الكتابة في المجتمع التجاري أوسع ميداناً من المجتمع الزراعي، يقول الواقدي: «كان الكتاب بالعربية في الأوس والخزرج قليلاً، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية، وكانت تعلمه الصبيان في المدينة في الزمن الأول» وعد الواقدي أسماء أحد عشر شخصاً يعرفون الكتابة»[١]. وهذا العدد يشير إلى أن الجهد الذي بذله اليهود في تعليم العربية كان ضئيلاً و محدوداً.

ولما أخذ الإسلام ينتشر بين الأنصار ظهرت بوادر حركة التعليم الجديدة... فقد ذهب رافع بن مالك الأنصاري إلى مكة، وتعلم ما نزل من القرآن في السنوات العشر التي مضت على البعثة من النبي ﷺ نفسه[٢].

وفي بيعة العقبة طلبت الأنصار من الرسول ﷺ بمكة أن «ابعث إلينا رجلاً يفقهنا في الدين، ويقرئنا القرآن»، فبعث إليهم مصعب بن عمير[٣].

ثم كانت الهجرة إلى المدينة، وقامت دولة الإسلام الأولى، وكانت متطلبات الدعوة أولاً والإدارة ثانياً تقتضي بذل جهود حثيثة في نشر التعليم.

وقد قام المسجد النبوي بمسؤولية كبرى في هذا المجال، ثم عضدته ثمانية مساجد أخرى[٤]، والمسجد يجتمع فيه الناس خمسة أوقات للصلاة، وتنعقد فيه حلقات العلم، ويخطب فيه كل جمعة، ويتلى فيه القرآن، وقد استمرت أهمية المسجد التعليمية قروناً طويلة بعد ذلك.

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ٦٦٣ - ٦٦٤.
(٢) ابن حجر: الإصابة ٢: ١٤٤.
(٣) المصدر نفسه ١: ١٢٤.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ١: ٢٧٣.

وفي الجانب الشمالي من المسجد النبوي تقوم الصفة التي سكنها فقراء المهاجرين والأنصار والقادمين من الغرباء، وهم منقطعون للعلم والعبادة والجهاد، وقد وردت روايات تفيد أن تعليم القراءة والكتابة كان ضمن النشاط التعليمي في الصفة، وأن ممن تولى هذه المهمة عبادة بن الصامت[١]. قال عبادة ابن الصامت: «علمت ناساً من أهل الصفة الكتابة والقرآن»[٢].

وإلى جانب المسجد قامت مراكز أخرى للتعليم في المدينة، كما يشير قول ابن مسعود: «قرأت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة، وزيد بن ثابت له ذؤابة في الكتاب»[٣]، وكما أخبر أنس بن مالك عن وجود الكتاب والمؤدبين في عصر الراشدين[٤]. ولا نعرف مدى انتشار هذه الكتاتيب داخل المدينة وخارجها، ولكن ثمة إشارة إلى وجود كتاب في الطائف، حيث كان جرير بن حية الثقفي يعلم فيه[٥].

وقد وردت إشارة عن «دار القراء» بالمدينة، وكانت قائمة بعد بدر الكبرى[٦] – على الأقل – ولا نعرف طبيعة الدور أو المهام الموكلة إليها، ولكن اسمها يدل على الاهتمام بقراءة القرآن الكريم.

وقد استفاد الرسول ﷺ من بعض أسرى بدر من المشركين في تعليم عشرة من غلمان الأنصار الكتابة مقابل فدائهم، وممن تعلم منهم زيد بن ثابت في جماعة من غلمان الأنصار[٧].

(١) أبو داود: السنن ٢: ٢٣٧، وابن ماجة: السنن ٢: ٧٣، ولمعرفة المزيد عن أهل الصفة راجع: أكرم العمري: المجتمع المدني ٩٦.
(٢) أحمد: المسند ٥: ٣١٥.
(٣) أحمد: المسند ١: ٣٨٩، والخطيب: الجامع ٢: ٩٢، وفيه «وإن زيداً ليختلف إلى الكتاب».
(٤) ابن سحنون: آداب المعلمين ٤٠ – ٤١.
(٥) ابن حجر: الإصابة ١: ٤٦٢.
(٦) الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ٨٠.
(٧) أحمد: المسند ٤: ٤٧ بإسناد صحيح، وقال البنا في الفتح الرباني: «في إسناده علي بن عاصم فيه كلام، ولكن وثقه الإمام أحمد». وابن سعد: الطبقات ٢: ٢٢، وأبو عبيد: الأموال ١١٦، والحاكم: المستدرك ٢: ١٤٠، والمقريزي: إمتاع الأسماع ١٠١، والخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ٧١.

وقد وردت أخبار عن رواد التعليم في ذلك العصر، فقد كان الحكم بن سعيد بن العاص الأموي كاتباً، فأمره النبي ﷺ أن يعلم الكتاب بالمدينة.. وكان يعلم الحكمة أيضاً[١].

ومن هؤلاء الرواد عبدالله بن سعيد بن العاص الذي أمره النبي ﷺ أن يعلم الكتاب بالمدينة، وكان كاتباً، وقضى يوم بدر شهيداً[٢].

وكانت الشفاء بنت عبدالله العدوية القرشية من أوائل المهاجرات، وقد أمرها النبي ﷺ أن تعلم حفصة أم المؤمنين الكتابة، وهذه أقدم إشارة إلى تعليم المرأة المسلمة الكتابة[٣]. وكان سعد بن عبادة زعيم الخزرج «يكتب بالعربية، ويحسن العوم والرمي، فكان يقال له الكامل»[٤] و «كان جهيم بن الصلت المطلبي قد تعلم الخط في الجاهلية، فجاء الإسلام وهو يكتب، وقد كتب لرسول الله ﷺ[٥]، وكان عمر بن الخطاب كاتباً، وقد كتب بعض الآيات بيده»[٦]. وكان لأبي ريحانة الأزدي رضي الله عنه صحف، وهو أول من طوى الطومار، وكتب فيه مدرجاً مقلوباً[٧].

ومن رواد التعليم الأوائل في المسجد النبوي بالمدينة سعد بن الربيع الخزرجي، وبشير بن سعد بن ثعلبة، وأبان بن سعيد بن العاص رضي الله عنهم[٨].

---

(١) ابن حجر: الإصابة ٢: ١٠٢ - ١٠٣.
(٢) ابن حجر: الإصابة ١: ٣٤٤، وانظر تهذيب تأريخ دمشق لابن عساكر ٧: ٤٣٨ حيث يذكر أنه ابن أحيحة بن العاص.
(٣) ابن حجر: الإصابة ٧: ٧٢٧، ٧٢٩، والخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ٧١، ٧٣.
(٤) ابن حجر: الإصابة ٣: ٦٦.
(٥) ابن حجر: الإصابة ١: ٥٢٤.
(٦) الطبري: تفسير ٢٤: ١٥.
(٧) ابن حجر: الإصابة ٣: ٣٥٩، ٣٦١ والطومار هو: الصحيفة.
(٨) ابن عبدالبر: الاستيعاب ١: ٦٤، وابن سعد: الطبقات ٣: ٥٣١، وابن حجر: الإصابة ١: ١٠.

وكان من ثمار السياسة التعليمية التي اختطها الرسول ﷺ ازدياد عدد الكاتبين في المجتمع الإسلامي، حتى بلغ عدد كتاب النبي ﷺ وحدهم نحو خمسين كاتباً، منهم من كتب الوحي مثل علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وعبدالله بن سعد بن أبي السرح وحنظلة بن الربيع ومعاوية بن أبي سفيان وأبان بن سعيد وخالد بن سعيد ﷺ، ومنهم من كان يكتب أموال الصدقات كالزبير بن العوام وجهيم بن الصلت ﷺ، ومنهم من كان يكتب المداينات والعقود، مثل عبدالله بن الأرقم الزهري، والعلاء بن عقبة ﷺ[١].

وقد دعمت الدولة جهود التعليم في المدينة، فكان عمر بن الخطاب ﷺ يرزق ثلاثة من المعلمين الذين كانوا يعلمون الصبيان بالمدينة خمسة عشر درهماً كل شهر لكل واحد منهم[٢]. واستقدم سعد بن أبي وقاص ﷺ رجلاً من العراق يعلم أبناءهم الكتاب بالمدينة ويعطونه الأجر[٣].

وكان التعليم يشمل الرجال والنساء، فقد خصص الرسول ﷺ للنساء مجلساً في المسجد النبوي بالمدينة[٤] وذلك إجابة لطلبهن[٥]، كما أمر الرجال - وكانت تتاح لهم عادة فرص أكثر للتعليم بسبب من مصاحبة الرسول ﷺ وحضور المجالس العامة - أن يعلموا النساء[٦]، وقد قال لهم مرة: «ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم»[٧].

---

(١) الكتاني: التراتيب الإدارية ١: ١١٥ - ١١٧، والجهشياري: الوزراء والكتاب ١٢ - ١٣، والخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ١٥٩، ١٧٣.

(٢) ابن عساكر: تأريخ دمشق ٨: ق ٩٢ ترجمة صدقة بن موسى الدمشقي، والمتقي الهندي: كنز العمال ٣: ٩٢٤ نقلا عن ابن أبي شيبة والبيهقي.

(٣) ابن سحنون: كتاب آداب المعلمين ٣٧.

(٤) البخاري: الصحيح (فتح الباري ١: ١٩٢ حديث رقم ٩٨).

(٥) المصدر نفسه، ١ / ١٩٥ حديث رقم ١٠١.

(٦) المصدر نفسه، ١ / ١٩٥ حديث رقم ٩٧.

(٧) المصدر نفسه ١: ١٨٣ باب ٢٥ تعليقاً قبل حديث رقم ٨٧. ومسلم رقم ٦٧٤.

وقد أثنت عائشة ﵂ على نساء الأنصار لطلبهن العلم[١]. وكانت صفوف النساء في المسجد خلف صفوف الرجال، ولم تعقد حلقات علمية مختلطة، ومنذ ذلك الوقت ظهر الأخذ بمبدأ عدم الاختلاط في التعليم، ولا يزال طابعه يغلب على حياتنا، مع أن مؤسساتنا التعليمية الحديثة قد تأثرت بأسلوب التعليم المختلط الغربي.

جـ - انتشار التعليم الإسلامي في البوادي والأمصار الجديدة:

أخذ التعليم في البوادي القريبة من مكة والمدينة ينتشر منذ عصر الرسالة، فقد أرسل النبي ﷺ بعثات التعليم إلى البادية، وكان منها وفد الرجيع إلى عضل والقارة لتعليمهم شرائع الإسلام، وكان يضم عشرة من الصحابة ﵃، وقد تعرض بنو لحيان للوفد فقتلوهم، ولم ينج منهم سوى اثنين، أسروهما وباعوهما لقريش فقتلهما[٢]. ووفد بئر معونة كان يضم سبعين من القراء، توجهوا إلى نجد، حيث تعرضوا لغدر الأعراب، وقتلوا جميعاً باستثناء واحد، عاد بخبرهم إلى المدينة[٣].

وقد أبقى الرسول ﷺ معاذ بن جبل ﵁ بمكة بعد الفتح، ليفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن[٤]، ثم بعثه قاضياً إلى الجند - من اليمن - ليعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام، ويقضي بينهم[٥]. «وكان معاذ معلماً يتنقل في عمالة كل عامل باليمن وحضرموت»[٦].

---

(١) المصدر نفسه ١: ٢٢٨ باب ٥٠.
(٢) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧: ٣٨٦).
(٣) المصدر نفسه ٧: ٣٨٦ - ٣٨٨.
(٤) ابن هشام: السيرة ٢: ٥٠٠، والخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ٦٧.
(٥) ابن سعد: الطبقات ٧: ٣٨٨، وابن عبدالبر: الاستيعاب ١: ٢٤٦، والخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ٦٧.
(٦) الطبري: تأريخ الرسل والملوك ١: ١٨٥٢ - ١٨٥٣ (ط. ليدن).

كذلك بعث الرسول ﷺ أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى أهل نجران، بناء على طلب وفدهم «أن يبعث من يعلمهم السنة والإسلام»[١]، ثم أرسل إليهم عمرو ابن حزم رضي الله عنه بعده، وهو ابن سبع عشرة سنة، ليفقههم في الدين، ويعلمهم القرآن، ويأخذ صدقاتهم، وذلك في السنة العاشرة للهجرة[٢].

وتنقطع أخبار إرسال البعثات التعليمية في خلافة الصديق رضي الله عنه، وربما يرجع ذلك إلى أحداث حركة الردة الخطيرة، حيث لم تعد البوادي آمنة. ثم تنشط هذه البعثات بعد إعادة توحيد الجزيرة والتوسع في الفتوح في خلافة عمر رضي الله عنه.

وقد بعث عمر رضي الله عنه رجلاً يقال له أبو سفيان، يستقرئ أهل البوادي القرآن، فمن لم يقرأ ضربه بالسوط[٣].

وقد اعتبر عمر رضي الله عنه التعليم من المسؤوليات المنوطة بالولاة في الأمصار، فقد ورد في إحدى خطبه: «اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار، فإني بعثتهم يعلمون الناس دينهم وسنة نبيهم»[٤]، وقد أكد هذا المعنى في مناسبة أخرى[٥].

وكان عمال عمر رضي الله عنه على الأمصار يدركون هذه المسؤولية، فقد صرح بها أبو موسى الأشعري رضي الله عنه حين قدم البصرة والياً، فقال: «بعثني إليكم عمر بن الخطاب أعلمكم كتاب ربكم وسنتكم»[٦]. وكان أبو موسى الأشعري يقرئ تلاميذه القرآن بعد أن يجلسهم حلقاً حلقاً، وعليه بردان أبيضان[٧].

---

(١) أحمد: المسند ٣: ٢١٢، وابن سعد: الطبقات ٣: ٤١١ - ٤١٢.
(٢) الطبري: تأريخ الرسل والملوك ١: ١٨٥٢، والخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ٧٩.
(٣) ابن حجر: الإصابة ١: ١٥١.
(٤) أحمد: المسند ١: ٤٨، وابن سعد: الطبقات ٣: ١، ١٤٩.
(٥) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٨١.
(٦) الدارمي: سنن ١: ١٣٥.
(٧) الفاكهي: أخبار مكة ٤: ١٠ بإسناد صحيح.

وقد أولى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه القراء في البصرة عناية خاصة، فازداد عددهم، وقويت مكانتهم الفكرية والسياسية، وكان لهم دور في كثير من الأحداث في صدر الإسلام[١].

ولم يكتف الخليفة عمر رضي الله عنه بجهود ولاة الأمصار في نشر التعليم، بل دعمها بالعلماء الذين كان يرسلهم من المدينة، محملين بوصاياه... فقد بعث عشرة من الصحابة رضي الله عنهم، وكان فيهم عبدالله بن مغفل المزني، ليفقهوا الناس بالبصرة[٢].

كذلك بعث عمران بن حصين الخزاعي رضي الله عنه إلى البصرة ليفقه أهلها، وكان من فقهاء الصحابة[٣].

ويروي قرظة بن كعب أنه لما أراد الذهاب مع عدد من أصحابه إلى الكوفة شيعهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: «إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جردوا القرآن، و أقلوا الرواية عن رسول الله»[٤].

وقد سير عمر عبدالله بن مسعود رضي الله عنهم إلى الكوفة ليعلم أهلها أمور دينهم[٥]. وكان نصيب الكوفة من الصحابة كبيراً، إذ هبط فيها ثلاث مئة من أصحاب الحديبية وسبعون من أهل بدر[٦].

وأرسل عمر معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء رضي الله عنهم إلى الشام، لأن أهلها بحاجة إلى من يعلمهم القرآن الكريم[٧]. فكان عبادة في الشام قاضياً ومعلماً[٨].

---

(١) صالح أحمد العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية ١٥.
(٢) ابن حجر: الإصابة ٤: ٢٤٣.
(٣) ابن حجر: الإصابة ٤: ٧٠٥، ٧٠٦.
(٤) ابن سعد: الطبقات ٦: ٧.
(٥) ابن حجر: الإصابة ٤: ٢٣٥.
(٦) ابن سعد: الطبقات ٦: ٩
(٧) ابن عساكر: تأريخ دمشق تحقيق د. شكري فيصل وآخرين ص ٢٣ وابن حجر: الإصابة ٢: ٦٢٦.
(٨) ابن عبدالبر: الاستيعاب ٢: ٤٢٤.

وقد نظم أبو الدرداء رضي الله عنه طلابه، ووزعهم في مجموعات لكثرتهم، واستحالة قيامه بتعليمهم بطريقة مباشرة، وراعى تدرجهم في العلم عند تقسيمهم، فكانت المجموعات متباينة المستوى. قال سويد بن عزيز: كان أبو الدرداء رضي الله عنه إذا صلى الغداة في جامع اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة، وعلى كل عشرة عريفاً، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره، فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفهم، فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء رضي الله عنه فسأله عن ذلك، وكان ابن عامر عريفاً على عشرة، فلما مات أبو الدرداء رضي الله عنه خلفه ابن عامر. قال مسلم بن مشكم - أحد تلاميذ أبي الدرداء - : قال لي أبو الدرداء رضي الله عنه: أعدد من يقرأ عندي القرآن. فعددتهم ألفا وست مئة ونيّفاً، وكان لكل عشرة منهم مقرئ، وأبو الدرداء يكون عليهم قائماً، وإذا أحكم الرجل منهم تحول إلى أبي الدرداء رضي الله عنه[١].

وقد اهتم قادة الفتح في الشام بتعليم المسلمين القراءة والكتابة، حيث طلبوا من أسرى قيسارية تعليم المسلمين الكتابة، وقد وضعوا في الجرف، وهو معسكر المسلمين في فلسطين[٢].

وقد ظهرت الكتاتيب في الشام بعد الفتح، وتعلم فيها أبناء الفاتحين. يقول أدهم بن محرز الباهلي الحمصي: «أنا أول مولود ولد بحمص - يعني من المسلمين - وأول مولود رئي في كتف - يعني يحمل كتفاً مكتوباً فيه القرآن - وأنا أختلف إلى الكُتَّابِ أتعلم الكِتَابَ - يعني القرآن - »[٣]. وممن تعلم في كتاتيب الشام وهو صبي إياس بن معاوية المزني قاضي البصرة المشهور[٤].

(١) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء١: ٦٠٦ - ٦٠٧. ويعرض ابن عساكر في تأريخ دمشق صوراً أخرى ١: ٣٩٩ - ٤٠٠.
(٢) البلاذري: فتوح البلدان ١٩٣.
(٣) ابن بدران: تهذيب تأريخ دمشق الكبير لابن عساكر ٢: ٣٦٧.
(٤) المصدر السابق ٣: ١٨٠.

وقد شاركت المرأة في نشر التعليم في الشام منذ وقت مبكر، قال عبد ربه ابن سليمان: كتبت لي أم الدرداء في لوحي فيما تعلمني: (تعلموا الحكمة صغاراً تعملوا بها كباراً)، و(إن لكل حاصد ما زرع من خير أو شر)[١].

ويبدو أن التعليم في الشام كان أكثر مركزية من بقية الأمصار، لأن عمر رضي الله عنه «لما افتتح البلدان كتب إلى أبي موسى الأشعري، وهو على البصرة، يأمره أن يتخذ للجماعة مسجدا، ويتخذ للقبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة وشهدوا الجمعة. وكتب إلى سعد بن أبي وقاص، وهو على الكوفة بمثل ذلك. وكتب إلى عمرو بن العاص، وهو على مصر بمثل ذلك. وكتب إلى أمراء أجناد الشام: لا يتبدوا إلى القرى ويتركوا المدائن، وأن يتخذوا في كل مدينة مسجداً واحداً، ولا يتخذوا للقبائل مساجد كما اتخذ أهل الكوفة والبصرة ومصر. وكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده»[٢].

*****

المبحث الثاني

مراكز الحركة الفكرية

كانت المدينة المنورة أهم مراكز الحركة الفكرية في عصر السيرة والراشدين، فهي دار السنة، ومجتمع الصحابة، ومنها انتشر العلم إلى بقية المدن والأمصار، بخروج عدد كبير من الصحابة منها بعد وفاة النبي ﷺ، حيث استقروا في البلاد المفتوحة، ونشروا العلم والرواية فيها.

(١) ابن عساكر: تأريخ دمشق ١٩: ق ٤٠٨. ترجمة هجيمة بنت حيي أم الدرداء.
(٢) ابن عساكر: تأريخ دمشق ٢: ٩٤ - ٩٥ (ط. المنجد).

إن إلقاء نظرة على ما خصصه كل من خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ) في طبقاته، ومحمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ) في طبقاته لتراجم علماء المدينة، ومقارنة ذلك بما خصصاه لبقية المدن، يكفي للدلالة على تفوق المدينة في العلم على ما سواها من المدن في ذلك العصر.

أما بقية مدن الحجاز فقد كان دورها في العلم ضئيلاً إذا ما قيست بالمدينة، وتبرز من بينها مكة بسبب مركزها الديني، واجتماع العلماء فيها في مواسم الحج. أما الأمصار الجديدة فتبرز الحركة العلمية في كل من: الكوفة، والبصرة، ودمشق، والفسطاط، حيث استقر فيها عدد كبير من الصحابة، إذ برزت في الكوفة مدرسة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في الفقه، وفي البصرة مدرسة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في القراءات.

وتأتي دمشق بعد الكوفة والبصرة في الأهمية، ثم يأتي دور الفسطاط بمصر. أما المشرق فلم تبرز أهميته العلمية في هذه المرحلة المبكرة، برغم أن نواة التعليم الإسلامي بذرت في قلوب أبنائه منذ ذلك الوقت. فقد ذكر أبو نعيم «أنه كان رجل بأصبهان من بني سليم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وكان في جملة الدهاقين يعلم أهلها الفرائض والسنن»[1].

مواد الكتابة:

قبل انتشار الورق - الذي ظهر في العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري -[2] كانت مواد الكتابة هي الحجارة أو العظام، أو عسب النخيل أو القماش، أو الجلود أو القراطيس (ورق البردي)، ولم ترد إشارة إلى استعمال الكاغد في عصر السيرة والراشدين.

(١) أبو نعيم: ذكر أخبار أصبهان ١: ٧٥.
(٢) صالح أحمد العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية ١٣.

والقراطيس اسم أطلق على ورق مصنوع من لب نبات البردي، الذي تشتهر به دلتا مصر. وقد عرف في جزيرة العرب قبل الإسلام، ويمتاز بصفحاته الكبيرة، غير أنه أغلى كلفة، وأقل دواماً من الورق[١].

وقد ورد ذكر القرطاس في القرآن الكريم[٢]، ولما أراد أبو بكر رضي الله عنه جمع القرآن الكريم كان بعضه مكتوباً في قراطيس[٣]، وقد وصلت إلينا نسخ من القرآن الكريم مكتوبة على البردي، وهي مما تحتفظ به دار الكتب المصرية[٤].

وكتب خالد بن الوليد رضي الله عنه عهد الصلح مع دمشق على قراطيس، كما أن صكوك «الجار» كانت تكتب على القراطيس[٥]. وشاع استعمال القراطيس في بلاد العرب بعد فتحهم لمصر من قبل عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وقد توسعت احتياجات الدولة للقراطيس ومواد الكتابة الأخرى، حتى خصص للقراطيس بيت كان ملتصقاً ببيت عثمان رضي الله عنه[٦].

وأما الجلود فقد استعملتها العرب في كتابتها، ويسمونها الرق والأديم والقضيم، فأما الرق فهو الجلد الرقيق الأبيض الذي يكتب عليه، وأما الأديم فهو الجلد أيا كان وقيل الأحمر، وقيل هو المدبوغ، وكان يستعمل في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كثيراً، فالقرآن «كان مما يكتب على الأديم»، وكتبه صلى الله عليه وسلم إلى أهل دوما ومالك الجذامي وزهير بن أقيش العكلي، وإقطاعه للعباس بن سلمة...

(١) صالح أحمد العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية ٥٤ - ٥٥.
(٢) الأنعام ٧، ٩١.
(٣) السيوطي: الإتقان ١: ٦٠، وصالح العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية ٥٤ - ٥٥.
(٤) صالح العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية ٥٤ - ٥٥.
(٥) المرجع نفسه ٥٥. وصكوك الجار كانت تصدرها الدولة وفيها أرزاق الناس من واردات مصر. والجار ميناء أهل المدينة المنورة على البحر الأحمر (البكري: معجم ما استعجم ٢: ٣٥٥).
(٦) البلاذري: (أنساب الأشراف) ١: ٢٢.

كل ذلك كان مكتوباً على أديم بعضه أحمر وبعضه خولاني. وأما القضيم فهو الجلد الأبيض، وقيل: هو الصحيفة البيضاء، وقبض رسول الله ﷺ والقرآن في العسب والقضيم[١].

وقد أجمع الصحابة ﷺ على كتابة القرآن الكريم في الرق لطول بقائه، أو لأنه الموجود عندهم حينئذٍ[٢].

وكان لأبي ريحانة الأزدي رضي الله عنه صحف، وهو «أول من طوى الطومار، وكتب فيه مدرجاً مقلوباً»[٣]، والطومار هو الصحيفة.

وكان سعيد بن جبير يكتب عند ابن عباس رضي الله عنه في صحيفة، فإذا امتلأت كتب في نعله، فإذا امتلأت كتب في كفه[٤]. واستخدم ابن عباس رضي الله عنه الألواح[٥]، وبلغت كتاباته حمل بعير[٦].

وقد استخدم آخرون أكفهم، فكتبوا عليها بالقصب عند البراء بن عازب رضي الله عنه[٧]، وبالطبع كانت الكتابة على الأكف وسيلة لتذكر المعلومات وحفظها ومن ثم تغسل، فاستخدامهم لها أشبه ما يكون بعمل السبورة اليوم.

وقد كتب زيد بن ثابت رضي الله عنه فريضة الجد في قطعة قتب[٨].

وكانت الصحف متوافرة في السوق، فقد اشترى الحارث الأعور صحفاً بدرهم، ثم جاء بها عليّاً رضي الله عنه فكتب له علماً كثيراً[٩].

---

(١) صالح العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية ٥١.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٤٢٥، وصالح العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية ٤٩.
(٣) ابن حجر: الإصابة ٣: ٣٥٩، ٣٦١.
(٤) أحمد بن حنبل: العلل ١: ٤٢، وفؤاد سزكين: تأريخ التراث العربي ١: ٩٧.
(٥) ابن سعد: الطبقات ٢: ٣٧١ (ط. دار صادر).
(٦) المصدر نفسه ٥: ٢٩٣.
(٧) أحمد بن حنبل: العلل ١: ٤٢، وابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ٧٣.
(٨) الدارقطني: سنن ٤: ٩٣ - ٩٤، والقتب: الرحل الصغير على قدر سنام البعير (لسان العرب).
(٩) ابن سعد: الطبقات ٦: ١٦٨، والخطيب: تقييد العلم ٨٩.

وقد استعان البعض بالسبورجة، فكان أبان بن أبي عياش يكتب عليها في الليل عند الصحابي أنس بن مالك رضي الله عنه[١].

وقد كانت الكتب الرسمية تطين وتختم منذ عصر الرسالة[٢]، وباتساع العلاقات الخارجية كثرت هذه المكاتبات، واحتاجت إلى الحفظ. وقد دوَّن عمر رضي الله عنه الديوان، وكان يحفظ في تابوت كل معاهدة كانت بينه وبين أحد ممن عاهده[٣].

*****

المبحث الثالث

موضوعات التعليم

لم يقتصر التعليم في عصر السيرة والراشدين على المراحل الأولية لتعليم الكتابة والقراءة، بل عرف أنماطاً أخرى عالية وتخصصات دقيقة، لم تكن مرتبطة في الغالب بمعرفة الكتابة، وإنما كانت تتم عن طريق السماع والمشافهة، فهو وسيلة التثقيف الأولى في ذلك العصر، وقد برز عدد من الصحابة المتخصصين في فن بعينه، كما جمع بعضهم بين فنون عدة.

وقد قام هؤلاء العلماء بمسؤوليتهم في نشر العلم وتفتيح العقول عليه، وتنمية أعداد طلبته، وإمداد الدولة بما تحتاج إليه من العناصر القيادية.

وكانت موضوعات التعليم تتمثل في القرآن وعلومه، والحديث، والفقه، واللغة العربية، والتأريخ، والأنساب، و الشعر، والقصص، والحكم، والأمثال، والتنجيم واللغات والثقافات الأجنبية.

(١) الخطيب: الجامع ٢: ٥٨.
(٢) الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ١٧٣.
(٣) المقريزي: الخطط ١: ٢٩٥.

وفيما يلي عرض لهذه الموضوعات مع الإشارة إلى أبرز المتخصصين فيها في ذلك العصر وفقا لما انتهى إلينا من المعلومات:

أ - القرآن و علومه:

لا شك في أن حفظ القرآن وإقراءه وتفسيره، يتقدم بقية الموضوعات، فهو الكتاب الوحيد المدون كاملاً في ذلك العصر، وقد بدأ المسلمون تدوينه في أثناء نزوله مفرقاً على الرسول ﷺ، ثم جمعت من هذه المدونات المفرقة نسخة واحدة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقام على هذه المهمة زيد بن ثابت بأمر أبي بكر الصديق رضي الله عنه، تنفيذاً لما أشار به عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد انتقلت هذه النسخة إلى عمر في خلافته، ثم أودعت عند حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضي الله عنها.

وقد أعيد جمع القرآن في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه من قبل لجنة رباعية كونها عثمان، كلفت القيام بهذه المهمة، وتتألف اللجنة من زيد بن ثابت رضي الله عنه، إذ تم اختياره نتيجة عوامل، منها: استماعه إلى العرضة الأخيرة للقرآن من النبي ﷺ نفسه بنصه الكامل الخالد دون الآيات التي نسخت تلاوتها من ناحية، وقيامه بالجمع الأول في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ومن قبل عمله كاتباً للوحي زمن الرسول ﷺ.

والثلاثة الآخرون في هذه اللجنة هم: عبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، وأعضاء اللجنة كلهم من قريش إلا زيد فهو أنصاري. وقد وضع عثمان رضي الله عنه للجنة قاعدة العمل بقوله: «ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش، فإنه نزل بلسانهم». وقد أتمت اللجنة عملها، وأقرهم عليه الصحابة آنذاك، حيث تم نسخ ستة مصاحف، وزعت أربعة منها على الأمصار، مكة والشام والكوفة والبصرة، وبقيت النسخة الخامسة في المدينة، واحتفظ عثمان بالنسخة السادسة. ثم نقلت سائر المصاحف عبر القرون

اللاحقة عن مصحف عثمان رضي الله عنه، الذي عرف بالمصحف الإمام، وسمي رسمه بالرسم العثماني.

وكان النص القرآني خالياً من النقط والحركات، تحتاج قراءته إلى السليقة اللغوية، وأدى نزوله على سبعة أحرف إلى نشوء بعض الاختلافات في قراءته، وكان ما فيه من الإجمال والعموم والناسخ والمنسوخ بحاجة إلى معرفة أسباب النزول، وتحديد القراءات الصحيحة، وتفسير المعاني، وبيان الأحكام التشريعية، وذلك كله يحتاج إلى تخصص دقيق، وقد برز في القراءات عدد من الصحابة، منهم عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وكان يمتلك مصحفاً مدوناً حمله معه إلى الكوفة، وقدر له أن يسمع سبعين سورة بلفظ الرسول ﷺ[١]، كما كان مطلعاً بدقة على تفسير القرآن. وقد وضح تلميذه مسروق طريقته في التعليم بقوله: «كان عبدالله يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار»[٢].

كذلك برز زيد بن ثابت رضي الله عنه، وأبي بن كعب رضي الله عنه الذي كان ممن يعلِّم الناس القرآن[٣].

وقد أوصى الرسول ﷺ الصحابة بأخذ القرآن من أربعة، هم: عبدالله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهم[٤].

وقد حفظ علي بن أبي طالب رضي الله عنه القرآن كاملاً بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة[٥]. ووردت أحاديث كثيرة في الحث على حفظ القرآن، وقراءته وتدبر معانيه، ومعرفة مقاصده، منها حديثه ﷺ: «تعلموا القرآن»[٦].

---

(١) ابن سعد: الطبقات ٣: ١٥١، وأحمد: المسند ١: ٣٨٩.
(٢) الطبري: تفسير، رقم ٨٤ (ط. أحمد شاكر).
(٣) البيهقي: السنن ٦ : ١٢٦.
(٤) الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ١٣٣.
(٥) المتقي الهندي: كنز العمال ١٣: ١٢٨.
(٦) الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ٢٥٨.

أما التفسير فكان يعتمد على شرح الرسول ﷺ للآيات، وكانت أسباب النزول معروفة لعلماء الصحابة، لأنهم عاشوا مع الأحداث. ونجد ابن عباس رضي الله عنه يعتمد كثيراً على شواهد الشعر الجاهلي في التفسير. ولم تظهر بوادر التفسير بالرأي في ذلك العصر، بل نجد أبا بكر رضي الله عنه يحذر منه بقوله: «أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم»[١].

وتبرز مصطلحات عدة تتعلق بعلوم القرآن في كلام عبدالله بن عباس، فقد فسر معنى الحكمة في الآية ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٢] بأنها «المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحرامه وحلاله، وأمثاله»[٣].

ب - الحديث:

مع وجود عدد من الكتاب في عصر السيرة، وقيامهم بتدوين القرآن الكريم، فإنه لم يتم تدوين الحديث النبوي بشمول واستقصاء، بل اعتمدوا على الحفظ والذاكرة في أغلبه، ولم يأمرهم النبي ﷺ بكتابته، ولعله بهذا أراد الحفاظ على ملكة الحفظ عندهم، خاصة أن الحديث تجوز روايته بالمعنى، خلاف ما عليه القرآن الكريم، الذي هو معجز بلفظه ومعناه، ومن ثم فلا تجوز روايته بالمعنى، لذلك اقتضت الحكمة حصر جهود الكاتبين في نطاق تدوين القرآن الكريم، وللتخلص من احتمال حدوث التباس عند عامة المسلمين، فيخلطون القرآن بالحديث إذا اختلطت الصحف التي كتب فيها القرآن بالصحف التي كتب فيها

(١) الخطيب: الجامع ٢: ١٩٣.
(٢) البقرة ٢٦٩.
(٣) ابن الجوزي: نواسخ القرآن ١١٠.

الحديث، خاصة في الحقبة المبكرة، عندما كان الوحي ينزل بالقرآن، ولما يكمل القرآن، ولما يعتد عامة المسلمين على أسلوبه[١].

وقد وردت أحاديث عن النبي ﷺ تنهى عن كتابة الحديث، ووردت أحاديث أخرى تسمح بكتابته، وأقوى أحاديث النهي ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «جهدنا بالنبي ﷺ أن يأذن لنا في الكتابة فأبى»[٢].

وأقوى أحاديث السماح بالكتابة ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبدالله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب**»[٣]. وحديث آخر أخرجه البخاري في صحيحه: أن رجلا من أهل اليمن طلب من الصحابة أن يكتبوا له خطبة النبي ﷺ بعد الفتح، فاستأذنوا النبي ﷺ في ذلك، فقال: «**اكتبوا لأبي فلان**»[٤]. وحديث ثالث أخرجه البخاري أيضاً، وهو قول النبي ﷺ في مرضه الذي توفي فيه: «**آتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده**»[٥].

وفي التوفيق بين حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وهذه الأحاديث يقول الرامهرمزي عن حديث أبي سعيد: «أحسبه أنه كان محفوظاً في أول الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن»[٦]. وممن ذهب إلى نسخ أحاديث النهي ابن قتيبة الدينوري[٧].

---

(١) لعبدالله بن رواحة قصة مع زوجته، حيث قرأ عليها من شعره أبياتاً حسبتها قرآناً. (الذهبي: سير أعلام النبلاء١: ٢٣٨ وقد قال: إن السند حسن، لكنه مرسل).
(٢) حديث رقم ٢٢٩٨.
(٣) البخاري: الصحيح ١: ٣٨.
(٤) المصدر نفسه ١: ٣٨.
(٥) المصدر نفسه ١: ٢٩، ومسلم: الصحيح حديث رقم ١٢٥٧.
(٦) الرامهرمزي: المحدث الفاصل ٧١أ.
(٧) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث ٣٦٥.

وقد وقف الصحابة ﷺ في عصر الراشدين مواقف متباينة من كتابة الحديث، فمنهم من كره الكتابة، ومنهم من أجازها، ومنهم من روي عنه الأمران.

فمن مواقف كبار الصحابة الذين كرهوا كتابة الحديث ما يلي:

١ - جمع أبو بكر الصديق رضي الله عنه خمس مئة حديث، ثم أحرقها[١].

٢ - استشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصحابة في تدوين الحديث، ثم استخار الله تعالى في ذلك شهراً، ثم عدل عن ذلك، وقال معللاً: «إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً»[٢].

٣ - قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علمائهم، وتركوا كتاب ربهم»[٣].

٤ - أتي عبدالله بن مسعود رضي الله عنه بصحيفة فيها حديث، فدعا بماء فمحاها، وقال: «بهذا أهلك أهل الكتاب قبلكم، حين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، كأنهم لا يعلمون»[٤].

٥ - وردت روايات تدل على كراهية صحابة آخرين لكتابة الحديث، وهم: زيد ابن ثابت، وأبو هريرة، وعبدالله بن عباس، وأبو سعيد الخدري، وعبدالله ابن عمر، وأبو موسى الأشعري ﷺ، وقد أوضح كل منهم أن سبب كراهته لكتابة الحديث. راجع إلى خوفه من انشغال الناس بها وانصرافهم عن القرآن الكريم.

---

(١) الذهبي: تذكرة الحفاظ ١: ٥.
(٢) الخطيب: تقييد العلم ٥٠، وابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ١: ٦٤.
(٣) ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ١: ٦٣.
(٤) المصدر نفسه ١: ٦٥.

أما مواقف الصحابة التي تدل على إجازتهم الكتابة، فهي:

١ - كتب أبو بكر الصديق لأنس بن مالك ﷺ فرائض الصدقة، التي سنَّها النبي ﷺ[١].

٢ - كتب عمر ﷺ لعتبة بن فرقد بعض السنن[٢]، ووجد في قائم سيفه صحيفة فيها صدقة السوائم[٣].

٣ - كان عند علي ﷺ صحيفة فيها: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر[٤].

٤ - كان عبدالله بن عمر ﷺ إذا خرج إلى السوق نظر في كتبه المدونة في الحديث[٥].

٥ - وردت أخبار عن إجازة بعض الصحابة الآخرين الكتابة، مثل: عائشة، وأبي هريرة، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عمرو بن العاص، والبراء بن عازب، وأنس بن مالك، والحسن ابن علي، وعبدالله بن أبي أوفى ﷺ.

وبعضهم كان يكره الكتابة ثم أجازها، ولا تناقض في مواقفهم، لأن سبب كراهتهم هو الخوف من اختلاطها بالقرآن أو مزاحمتها له، أما حين يأمنون ذلك فإنهم يجيزون كتابة الحديث. ولذلك فقد كتب بعضهم الأحاديث في الصحف في عصر الرسالة والراشدين، ومنها:

١ - صحيفة سعد بن عبادة الأنصاري.

---

(١) أحمد: المسند ١: ١١.
(٢) أحمد: المسند ١: ١٦.
(٣) الخطيب: الكفاية ٣٥٣.
(٤) البخاري: الصحيح ١: ٣٨، وابن سعد: الطبقات ١: ٤٨٦.
(٥) الخطيب: الجامع ٢: ١٤.

٢ - صحيفة عبدالله بن أبي أوفى.
٣ - نسخة سمرة بن جندب (ت ٦٠ هـ)، جمع فيها أحاديث كثيرة.
٤ - كتب أبي هريرة.
٥ - صحيفة أبي موسى الأشعري (ت ٥٠هـ).
٦ - صحيفة جابر بن عبدالله الأنصاري (ت ٧٨هـ).
٧ - الصحيفة الصادقة لعبدالله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥ هـ)، وقد نقلها الإمام أحمد في مسنده[١].

وغير ذلك من النسخ والصحف التي دونت في هذه الحقبة المبكرة، وقد أحصى أحد الباحثين أسماء اثنين وخمسين صحابيّاً كتبوا الأحاديث النبوية[٢]، مما أدى إلى توسع الأجيال اللاحقة في كتابة الحديث حتى جمعته الكتب الستة وغيرها من مدونات الحديث الضخمة.

جـ - الفقه:

يشتمل الفقه على أحكام العبادات والمعاملات معاً، وبذلك ينظم سائر النشاط الفردي و الجماعي في ذلك العصر، ومصادره الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وقد برز عدد من الفقهاء اللامعين، الذين تركوا ثروة فقهية، يأخذ عنها الفقهاء المعاصرون.

ويذكر ابن القيم أن الذين حفظت عنهم الفتوى من الصحابة مئة ونيف وثلاثون صحابيّاً، بين رجل وامرأة، وأن المكثرين منهم سبعة هم: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وزيد ابن ثابت، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر ﷺ.

(١) أكرم العمري: بحوث في تأريخ السنة المشرفة ٢٢٣.
(٢) محمد مصطفى الأعظمي: دراسات في الحديث النبوي ٩٢ - ١٤٢.

وينقل ابن القيم عن ابن حزم قوله: «ويمكن أن يجمع من فتوى كل واحد منهم سفر ضخم»، وذكر أن أبا بكر محمد بن موسى بن يعقوب الحافظ جمع فتيا عبدالله بن عباس رضي الله عنه في عشرين كتاباً[١].

وقد قام بعض الباحثين المعاصرين بجمع فقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأصدره في أربع مجلدات[٢]، كما جمع آخر فقه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في مجلدة كبيرة تقع في ٥٦٠ صفحة[٣].

وسمى ابن حزم ثلاثة عشر صحابيّاً من المتوسطين في الفتيا، وقال: إنه يمكن أن يجمع من فتيا كل واحد منهم جزء صغير جدّاً، وقد ذكر في المتوسطين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد جمع فقهه باحث معاصر، فوقع في مجلدة متوسطة (٣٤٠ صفحة)[٤].

أما المقلون في الفتيا منهم، وهم أكثر من عشرة ومئة صحابي، فقال ابن حزم: إنه يمكن أن يجمع من فتيا جميعهم جزء صغير فقط بعد التقصي والبحث[٥]. ومن الجدير بالذكر أن بعض المعلومات الفقهية كانت مدونة في عصر السيرة نفسه، منها كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عمرو بن حزم الأنصاري رضي الله عنه في الفرائض والزكاة والديات.

وكان عمر رضي الله عنه يذاكر بالفقه، ويأمر بتعلم السنن والفرائض والتفقه في السنة[٦]. وكان لدى علي رضي الله عنه صحيفة تتناول الصدقات والديات وحرم المدينة، وقد ورثها عن النبي صلى الله عليه وسلم مع سيفه ذي الفقار، حيث كانت معلقة بجفن السيف.

وكذلك دونت في تلك الحقبة المبكرة بعض أقضية علي رضي الله عنه وفتاويه[٧].

---

(١) ابن القيم: إعلام الموقعين ١: ١٢.
(٢) هو الدكتور رويعي بن راجح الرحيلي.
(٣) هو الدكتور محمد رواس قلعه جي.
(٤) هو الدكتور محمد رواس قلعه جي.
(٥) ابن القيم: إعلام الموقعين ١: ١٢.
(٦) المتقي الهندي: كنز العمال ١٠: ٢٥٢.
(٧) مسلم: الصحيح، المقدمة ١٣.

د - اللغة العربية:

وقد ظهرت العناية باللغة العربية لأهميتها في فهم نصوص القرآن والسنة، وكذلك لأهميتها الذاتية، وقد نقلت المصادر توصيات عدة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بتعلم العربية ورواية الشعر، فقد كتب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه حينما كان واليه: «مر من قبلك بتعلم العربية، فإنها تدل على صواب الكلام، ومرهم برواية الشعر، فإنه يدل على معالي الأخلاق»[١].

ونقل قوله: «تعلموا العربية، فإنها تزيد في المروءة»[٢].

وقوله: «عليكم بالتفقه في الدين، والتفقه في العربية وحسن العربية»[٣].

وقوله: «أعربوا القرآن فإنه عربي»[٤].

وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنه يضرب بنيه إذا لحنوا[٥]. ولا شك أن عصر السيرة والراشدين يمثل بداية جديدة لازدهار اللغة العربية، التي اعتز بها أصحابها، وتعلمها المسلمون الجدد في المناطق المفتوحة، وهذا ليس غريباً، فهي لغة الدين و الدولة الجديدة.

هـ - التأريخ:

أما علم التأريخ فقد انصبت العناية على السيرة النبوية وأخبار الأنبياء الماضين، قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «كنا نعلم أولادنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما نعلمهم السورة من القرآن»[٦].

---

(١) المتقي الهندي: كنز العمال ١٠: ٣٠٠.
(٢) الخطيب: الجامع ٢: ٢٥.
(٣) المتقي الهندي: كنز العمال ١٠: ٢٥٤.
(٤) المصدر نفسه ١٠: ٢٥٢.
(٥) الخطيب: الجامع ٢: ٢٩.
(٦) فقدت المصدر، ولم أقف عليه.

ولا شك في أن القرآن الكريم وجَّه أتباعه إلى العناية بالتأريخ بإشاراته التأريخية المتنوعة، وبعطائه الثر في ميدان التعليل للأحداث، وإثبات قانون السببية، وخاصة في موضوع قيام الدول وانهيار الحضارات. لكن المعلومات التأريخية كانت تنقل مشافهة في الغالب، حيث تأخر التدوين التأريخي عن هذا العصر.. باستثناء صور من عصر السيرة، دوَّنها بعض الصحابة ضمن الأحاديث النبوية.

وتشير رواية قديمة إلى أن الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه حث وهب بن منبه على تعلم تأريخ الحميريين[1].

وكانت بعض المعلومات التأريخية والوثائق مدونة في ذلك العصر، مثل رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والرؤساء، ورسائل الخلفاء الراشدين إلى القادة في ميادين القتال وإلى ولاة الأمصار. ولكن هذه الوثائق الرسمية لم تكن بالطبع ضمن المواد التعليمية، وربما لم يطلع عليها آنذاك غير عدد محدود من الناس.

و - علم الأنساب:

أما علم الأنساب، فهو علم عرفه المسلمون عن العصر الجاهلي، لكنهم جمعوه ودونوه، فضلاً عن شيوعه بينهم. وقد استمر الاهتمام بالأنساب في عصر السيرة والراشدين لضرورات دينية واجتماعية وعسكرية وإدارية، وفي الوقت الذي حرم الإسلام العصبية القبلية والتفاخر بالأنساب، فإن للأنساب أهميتها في تطبيق أحكام الأحوال الشخصية من زواج وميراث.. وفي معرفة أنساب المحدِّثين لتمييز رواة الحديث، وفي توزيع العطاء، وفي التنظيم العسكري، حيث كانت القبيلة وحدة مقاتلة، كما أنها كانت أساس التنظيم الاجتماعي والإداري في الأمصار، ويمكن أن نعد ديوان الجند في خلافة عمر رضي الله عنه أول تدوين شامل للأنساب.

---

(١) ابن هشام: كتاب التيجان ٨٢، وفؤاد سزكين: تأريخ التراث العربي ١: ٤٠٢.

وقد صحَّ أن الرسول ﷺ أمر بتعلم الأنساب، فقال: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم**»(١).

وقد ذكر الجاحظ ١٤ مؤلفاً صنفوا كتباً في الأنساب، معظمهم عاش قبيل الإسلام أو وقت ظهوره(٢).

وقد اشتهر بعض الصحابة بمعرفة علم النسب، وكان منهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه (٣).

وقد كلف الخليفة عمر بن الخطاب ثلاثة من نسابي قريش، وهم جبير بن مطعم، وعقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل رضي الله عنهم عمل جدول بالأنساب(٤). وكان عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه «عالماً بأنساب قريش ومآثرها ومثالبها، وكان الناس يأخذون ذلك عنه بمسجد المدينة»(٥)، وكذلك اشتهر حكيم بن حزام الأسدي رضي الله عنه بعلمه بأنساب قريش وأخبارها(٦).

ز - الشعر:

وتدل الشواهد الشعرية العديدة على أن القبائل اهتمت بتقييد أشعار شعرائها، وبعض هذه القبائل كانت تسجل أيضاً أخبار حروبها ووقائع أيامها ومفاخرها ومآثرها وحكمها(٧).

---

(١) الترمذي: السنن، كتاب البر ٤٩، و أحمد: المسند ٢: ٣٧٤، والألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم الحديث ٢٧٦.
(٢) الجاحظ: كتاب الحيوان ٣: ٢٠٩ - ٢١٠، وفؤاد سزكين: تأريخ التراث العربي ١: ٤٠٣.
(٣) فؤاد سزكين: تأريخ التراث العربي ١: ٤٠٥.
(٤) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٩٥ - ٢٩٩، والبلاذري: أنساب الأشراف ٤٣٦ - ٤٣٧، والطبري: تأريخ الرسل والملوك ١: ٢٧٥٠ - ٢٧٥٢، وفؤاد سزكين: تأريخ التراث العربي ١: ٤٠٤.
(٥) ابن حجر: الإصابة ٤: ٥٣٢.
(٦) المصدر نفسه ٢: ١١٣.
(٧) الدكتور ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي١٠٧ - ١٣٣، ١٦٥.

وقد أفاد جيل عصر السيرة والراشدين من هذه الأشعار في فهم القرآن الكريم وتفسير معانيه، قال ابن عباس رضي الله عنه: «**إذا سألتموني عن عربية القرآن فالتمسوه بالشعر، فإن الشعر ديوان العرب**»(١).

وقد سمع النبي ﷺ الشعر، وأثنى على بعضه، فقال: «**إن من الشعر حكمة**»(٢). وامتدح الشعراء المسلمين الذين نافحوا عن الدين، وقد برز في عصر السيرة من شعراء الإسلام حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله ابن رواحة رضي الله عنهم.

وبنى عمر رضي الله عنه رحبة في ناحية المسجد النبوي سميت بالبطيحاء، وقال: من كان يريد أن يلفظ أو ينشد شعراً أو يرفع صوته، فليخرج إلى هذه الرحبة(٣)، فقد نهى النبي ﷺ عن تناشد الأشعار في المسجد(٤).

وقال كثير بن أفلح: «آخر مجلس جالسنا فيه زيد بن ثابت تناشدنا فيه الشعر»(٥).

حـ - القصص:

أما القصص فقد بدأ في وقت مبكر، وكان القصاصون يقومون بدور وعظي، وكان الأسود بن سريع السعدي شاعراً، وكان في أول الإسلام قاصّاً، وهو أول من قص في مسجد البصرة(٦). وقد استأذن تميم الداري عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ليقص على الناس فلم يأذن له، وكان عمر بن زرارة يقص على الناس في مسجد الكوفة في حياة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه الذي اعترض عليه(٧).

(١) الخطيب: الجامع ٢: ١٩٨.
(٢) البخاري: الصحيح، حديث رقم ٦١٤٥.
(٣) الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ١٣٠.
(٤) المصدر نفسه ١٢٩ نقلاً عن الترمذي.
(٥) الخطيب: الجامع ٢: ١٣١.
(٦) ابن حجر: الإصابة ١: ٧٤.
(٧) السيوطي: تحذير الخواص ٥٩، ٦٠ - ٦١.

وقد نهى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أبا يحيى عن القص في مسجد الكوفة، لأنه لا يعرف الناسخ والمنسوخ[١].

وينفي عبدالله بن عمر وقوع القص على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، ويقول: إنه أحدث بعد قتل عثمان رضي الله عنهم.

ط - الحكم والأمثال:

لقد أضيف في الإسلام إلى حكم وأمثال العرب في الجاهلية قدر كبير، حيث ضرب القرآن الكريم والحديث النبوي الأمثال الكثيرة، التي صنفت فيها فيما بعد مؤلفات كثيرة، وبالطبع لا يمكن أن نقبل بسهولة تأويل ابن خلدون لكلمة «الحكمة» التي وردت في القرآن ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾[٢] بأنها تعني الفلسفة[٣]، لأنها في الحقيقة تعني ما فهمه العرب - الذين نزل القرآن بلغتهم - من كلمة «الحكمة»، وهو: فهم القرآن والسنة، والإصابة في القول والفعل[٤].

وللحكم والأمثال أهمية تربوية، فقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: «روّحوا القلوب، وابتغوا لها طرف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان»[٥]

ي - الطب:

ولقي الطب اهتماماً واضحاً، وكانت أحداث الجهاد وكثرة الجراحات دافعاً قويّاً لذلك، وقد ورث المسلمون خبرات العصر الجاهلي الطبية، وأشهر أطباء العرب الذين عاصروا ظهور الإسلام الحارث بن كلدة الثقفي[٦]، والمتطبب

(١) ابن الجوزي: نواسخ القرآن ١٠٥ - ١٠٩.
(٢) البقرة: ٢٦٩.
(٣) سيد معظم حسين: مناشدة لإقامة جامعة إسلامية حديثة (حل الازدواجية) ضمن كتاب التعليم الإسلامي: أهدافه ومقاصده ١٣٠، وابن خلدون: المقدمة ٥٤٩.
(٤) الطبري: تفسير ٣: ٨٩ - ٩٠، وابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ١٧.
(٥) الخطيب: الجامع ٢: ١٢٩، وابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ١٠٥.
(٦) ابن حجر: الإصابة ١: ٥٩٥.

الشمردل بن قباث الكعبي النجراني[١]، وكان ضماد بن ثعلبة الأزدي يتطبب، وقد رحل في طلب علم الطب[٢].

وقد أضاف النبي ﷺ رصيداً ضخماً إلى التراث الطبي الجاهلي، كما يظهر ذلك في كتب الطب النبوي، ولا شك أن علم الطب ازداد رصيده في عصر الراشدين بإضافة معلومات الفرس والروم الطبية إليه.

ك - علم النجوم (التنجيم):

ومنذ ذلك العصر كانت النظرة إلى علم النجوم مفعمة بالشك، فليس من أحد يعرف الغيب إلا الله وحده، وقد أبطلت الكهانة والسحر وعلم النجوم، التي كانت شائعة في الجاهلية بحكم العقيدة الإسلامية، فورد في الحديث النبوي: «**من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**»[٣]. قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «قوم ينظرون في النجوم يكتبون «أبا جاد»، أولئك لا خلاق لهم»[٤].

ولا شك أن علم التنجيم فيه ادعاء معرفة الغيب، وجعل الأفلاك وحركتها مؤثرة في أقدار الناس ومصائرهم، ولا علاقة له بعلم الفلك الذي اهتم المسلمون به، وأضافوا إلى تراث الإنسانية في مجاله.

إن التمييز بين العلمين كان واضحاً في عصر السيرة والراشدين، فقد قال عمر رضي الله عنه: «تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر، ثم أمسكوا»[٥].

---

(١) المصدر نفسه ٣: ٣٥٨.

(٢) المصدر نفسه ٣: ٤٨٦.

(٣) ابن ماجة: السنن ١: ١٢٢٨ حديث رقم ٣٧٢٦ وإسناده قد يرقى إلى الحسن، ففيه عبيد الله ابن الأخنس صدوق يخطئ.

(٤) ابن سحنون: كتاب آداب المعلمين ٦٢.

(٥) ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ٣٨ - ٣٩.

ل - الثقافة واللغات الأجنبية:

لم يكن الحجاز في عزلة عن العالم المحيط به من الشمال والجنوب، فالمجتمع المكي التجاري له رحلات منظمة في الشتاء والصيف إلى الشام واليمن، وهذه الرحلات أكسبتهم خبرات لا تقتصر على النواحي الاقتصادية، بل تمتد إلى الثقافة أيضاً، والمجتمع المدني تعيش فيه جالية كبيرة من القبائل اليهودية التي تنتشر بينها العبرية، والتوراة والقصص الديني التأريخي. وقد وردت إشارات مبعثرة في المصادر التأريخية، تبين معرفة بعض العرب بالعبرية، فقد صح أن ورقة بن نوفل كان يكتب الإنجيل باللغتين العربية والعبرية[١].

ويبدو من عدم ورود إشارات في المصادر عن معرفة الأنصار بالعبرية، أن اليهود لم يستعملوها في الحياة اليومية، بل كانوا يتخاطبون بالعربية، وربما لم يكن يعرف العبرية سوى أحبارهم، لذلك ظهرت الحاجة إلى أن يتعلم بعض المسلمين في المدينة اللغة العبرية، قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال لي: «**تعلم كتاب اليهود فإني والله ما آمن اليهود على كتابي**». قال: فتعلمته في أقل من نصف شهر[٢].

أما السريانية فقد تعلمها زيد بن ثابت رضي الله عنه أيضاً، فكان يقرأ الكتب التي ترد بها، ويكتب رد الرسول ﷺ عليها[٣]. كذلك تعلمها عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما[٤].

---

(١) البخاري: الصحيح، كتاب بدء الوحي ٢: ٢١٤، ومسلم: الصحيح، كتاب الإيمان ٢٥٢، والترمذي: الجامع، كتاب الاستئذان والأدب عن رسول الله ﷺ، باب في تعليم السريانية.

(٢) أحمد: المسند ٥: ١٨٦، و أبو داود: السنن ٤: ٦٠ حديث رقم ٣٦٤٥، والترمذي: السنن ٥: ٦٧ حديث رقم ٢٧١٥، وابن سعد: الطبقات ٢: ٣٥٨، والحاكم: المستدرك ١: ٧٥، والألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ١: ٣٦٤ حديث رقم ١٨٧، وابن حجر: فتح الباري ١٣: ١٨٥ حديث رقم ٧١٩٥ معلقاً.

(٣) الترمذي: الجامع، كتاب الاستئذان ٢٢، وابن سعد: الطبقات ٢: ٣٥٨، والحاكم: المستدرك ٣: ٤٢٢، وابن حجر: الإصابة ٢: ٥٩٤، وابن عبدالبر: الاستيعاب ١: ١٩٤، والألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢: ١٥٥.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٧: ٤٩٥.

والحقيقة أن زيد بن ثابت رضي الله عنه كان وحده - في عصر السيرة - يعرف لغات عدة، فقد ذكر الخزاعي أنه «كان يكتب للملوك، ويجيب بحضرة النبي ﷺ، وكان ترجمانه بالفارسية والقبطية والحبشية، تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن»[١].

أما عن التراث المكتوب باللغات الأجنبية، فقد كانت تتوفر نسخ من التوراة في المناطق المفتوحة[٢].

وكان عند عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما جملة من كتب أهل الكتاب، وكان يقرأ فيها[٣]. وقد حصل على كثير منها في وقعة اليرموك، فكان يخبر بما فيها من الأمور المغيبة، حتى إن بعض أصحابه ربما قال له: حدثنا عن النبي ﷺ ولا تحدثنا عن الصحيفة[٤]. وكان أبو هريرة رضي الله عنه يعلم ما في التوراة وإن لم يقرأها، فقد علم شيئاً مما فيها بواسطة الأشخاص المطلعين عليها[٥].

وقد أظهر رجل كتاب دانيال بالكوفة، فأنكر الناس عليه أن يظهر غير القرآن[٦].

ولم يكن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم من بعده يرغبون في أن يزاحم القرآن والسنة بهذا التراث الديني القديم، فقد كانت العناية تتجه إلى فهم الإسلام قبل الانفتاح على الثقافات الأخرى.. حدث أن أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الرسول ﷺ بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله هذه

(١) الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ٢٠٨.
(٢) ابن حجر: الإصابة ٣: ٤٩٦.
(٣) الذهبي: تذكرة الحفاظ ٤٢، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٣: ٥٤، و أحمد بن حنبل: المسند ٢: ١٩٥.
(٤) ابن حجر: الإصابة ٧: ٤٤٠.
(٥) المصدر نفسه ٧: ٤٤٠.
(٦) الخطيب: تقييد العلم ٥٦ - ٥٧.

نسخة من التوراة، فسكت. فجعل يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغير. فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، رضينا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبيّاً. فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيّاً وأدرك نبوتي لاتبعني**»(١).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال حين أتاه عمر بالتوراة: «**أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟**» يعني: أمتحيرون أنتم في الإسلام، فتلجؤون إلى الأخذ من سواه؟ . ثم قال: «**لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حيّاً ما وسعه إلا اتباعي**»(٢).

وقد ازداد اتصال المسلمين بمصادر الثقافات الأجنبية في عصر الراشدين، فالأمصار الجديدة فيها نسخ وصحف من التراث الديني القديم، وقد استمر حذر الدولة شديداً، فنهت عن شيوع تلك الصحف التي تتناول العقائد الدينية، وكان هدف الدولة صبغ المجتمعات المفتوحة بالثقافة الإسلامية والعقيدة الدينية الجديدة من غير أن تختلط بمفاهيم أخرى.

قال خالد بن عرفطة: كنت جالساً عند عمر رضي الله عنه إذ أتي برجل من عبدالقيس مسكنه بالسوس، فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدي ؟ قال: نعم. فضربه بعصا معه. فقال الرجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس. فجلس، فقرأ عليه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ إلى قوله تعالى ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾، فقرأها عليه ثلاثاً، وضربه ثلاثاً.

(١) رواه الدارمي: السنن ١: ١١٥ - ١١٦، و أخرجه ابن حبان: الصحيح.
(٢) رواه أحمد: المسند، والبيهقي: شعب الإيمان، من طرق يؤيد بعضها بعضاً.

فقال له الرجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذي نسخت كتاب دانيال؟ قال: مرني بأمرك أتبعه. قال: انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ثم لا تقرأه أنت ولا تقرئه أحداً من الناس، فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأهلكنَّك عقوبة. ثم حكى له عمر رضي الله عنه قصة مجيئه بالتوراة إلى النبي ﷺ وغضبه وكلامه في ذلك[1].

إن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم من بعده نهوا المسلمين في أول الإسلام عن الأخذ مما في كتب التراث الديني الأخرى، لأن الإسلام جاءهم بالشريعة الواضحة الخالصة من الشرك والشبهات، المصونة عن التبديل والتحريف، ففيها غنى وكفاية عما سواها من العقائد والأديان، وكان هذا الحذر في تداول الكتب الدينية القديمة ضروريّاً لصون الفكرة الإسلامية واستقرار التصور الإسلامي.

فلما استقر الإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، واتضحت مقاييسه الفكرية والخلقية في أذهان الناس، تفتحوا على ثقافات الأمم وأديانها وعقائدها بعقلية ناقدة ونظرة مقارنة فاحصة، فكانت دراسات الأديان المقارنة التي تمثلها كتب الفرق الكثيرة، ومنها ما تركه البغدادي وابن حزم والشهرستاني وغيرهم.

(١) أورده الهيثمي: مجمع الزوائد ١: ١٨٢ وقال: رواه أبو يعلى، وفيه عبدالرحمن بن إسحاق الواسطي، ضعفه أحمد وجماعة. و أورده البوصيري: إتحاف الخيرة ٢: ١٣٥، وابن حجر: المطالب العالية ٤: ٢٨.